مجالسُ الحديث النَّبويّ الشَّريف

الجزء الخامس

للإمام الشيخ عبد الله سِراج الدِّين الحُسيني

جمع وتقديم
ولدِهِ

المهندس الشيخ محمد مُحيي الدِّين سِرَاج الدّين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

مجالسُ الحديث النَّبويّ الشَّريف

الجزء الخامس

للإمام الشيخ عبدِ الله سِرَاج الدِّين الحُسيني

جمع وتقديم

ولدِهِ

المهندس الشيخ محمد مُحيي الدِّين سِرَاج الدِّين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

اعتنى بها وخرَّج أحاديثها

خادم العلم الشريف

الدكتور بكري بريمو السمان

في هذه المجالس

بيانات بعض أحاديث سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم
التي ذكرها الإمام البخاري
رضي الله عنه
في (الجامع الصحيح)
وهي مجالس الشيخ الإمام
في جامع (الحموي)
يوم الأربعاء
بعد شروق الشمس بقليل

أيها القارئ الكريم

هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة

إلى العَلّامة الكبير والعارف الشهير

الإمام المفسِّر المُحَدِّث الشيخ

عبدِ الله سِراج الدِّين الحُسيني

وإلى ولده العالِم العامل

المهندس الشيخ

محمد مُحيي الدين سِراج الدِّين

رضي الله عنهما، وجزاك الله خيراً.

الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام

www.srajalden.com

المحاضرة الأولى بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب حجبت النار بالشهوات

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : [حُجِبَتِ النار بالشهوات ، وحجبت الجنة بالمَكَارِهِ] [1] .

وفي رواية لمسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [حُفَّتِ الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات] [2].

ويتجلى في هذا الحديث ما أعطى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من جوامع الكلِم[3]، وهو أن يتكلم ﷺ بكلمات موجزة لكنها جامعة لمعانٍ وأسرار كبيرة .

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: [حُجِبَتِ الجنة بالمكاره] أي: ألقي الحجاب بين الإنسان وبين الجنة ، بحيث إن الإنسان إذا اقتحم هذا الحجاب دخل الجنة ، وهذا الحجاب هو المكاره أي التكاليف الشرعية التي شرعها الله تعالى لعباده بما فيها من أوامر ومَناهٍ -التي تكره النفوس الضعيفة فعلها.

---

[1] في صحيحه في كتاب الرقاق .

[2] في صحيحه في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

[3] روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:[فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ]...الحديث

فالمكاره في الحديث السابق هي المصاعب والمتاعب التي تصيب النفس حين قيامها بالتكاليف الشرعية.

فمن ذلك مثلاً: الصبر على الصلاة وأدائها في أوقاتها ، والصبر على الصيام، وعلى أداء مناسك الحج ، وهكذا أيضاً إسباغ الوضوء عند الكريهات - أي عندما يشق على النفس ذلك ، كما في حالة البرد وقلة الماء وغير ذلك.

وبصبر الإنسان على فعل هذه التكاليف الشرعية يخترق حجاباً بعد حجاب حتى لا يبقى بينه وبين الجنة حجاب.

وإن ما يُهوِّن على الإنسان صبره على طاعة الله تعالى وتحمله المتاعب في ذلك هو احتسابه في صبره الأجر والثواب عند الله تعالى وإيمانه بوعد الله تعالى لِما أعده للصابرين من عظيم الأجر والفضل عنده سبحانه وتعالى .

ألا ترى إلى التاجر يرحل عن أهله وبلده ويطوي المسافات الشاسعة ويتحمل المصاعب والمتاعب في سبيل الحصول على ربح مادي يعود بالخير على نفسه وأهله؟! ولولا ثقته بالربح من تجارته لما رحل وصبر وقاسى الشدائد ، فما بالك إذاً بمن جعل الآخرة نصب عينيه وطمع فيما عند الله تعالى من أجر ونعيم ، فراح يكثر من العبادات والطاعات ممتثلاً قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ * تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَـٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَـٰرَةٗ لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ .

ومتى ارتفعت الحجب بين العبد وبين الجَنة صار أهلاً لأن يخاطَب بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ .

وليس هذا الخطاب مقتصراً عند الموت فقط ، ولكن العبد يخاطب به في جميع العوالم وذلك على حسب قوة إيمانه ورفعة مقامه .

ومما يَحْرُمُ على الإنسان سماعه: سماع نغمة صوت المرأة حتى وإن كانت تتلو القرآن أو تمدح النبي ﷺ ، لأن نغمة صوت المرأة عورة ، أما مجرد سماع صوتها بكلام عادي لحاجة ما فلا بأس منه[1] .

وإذا قيل: إن فلاناً يسمع صوتها بتلاوة أو مديح ويخشع من صوتها؟

فيقال له: عليك أن تتقرب إلى الله تعالى بما شرع الله تعالى لك ، فقد تستحسن أموراً من نفسك لكن الشارع قبَّحها ولم يشرعها فلا تقربها ، وكن متبعاً لما جاءك عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

---

[1] جاء في حاشية ابن عابدين: نَغْمَةُ الْمَرْأَةِ عَوْرَةٌ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ [التَّسْبِيحُ لِلرِّجَالِ، وَالتَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ] فَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَسْمَعَهَا الرَّجُلُ. اهـ.
وَلِهَذَا مَنَعَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ التَّسْبِيحِ بِالصَّوْتِ لِإِعْلَامِ الْإِمَامِ بِسَهْوِهِ إلَى التَّصْفِيقِ.اهـ
وذَكَرَ الْإِمَامُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ فِي كِتَابِهِ فِي السَّمَاعِ: وَلَا يَظُنُّ مَنْ لَا فِطْنَةَ عِنْدَهُ أَنَّا إذَا قُلْنَا: (صَوْتُ الْمَرْأَةِ عَوْرَةٌ) أَنَّا نُرِيدُ بِذَلِكَ كَلَامَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، فَإِذًا نُجِيزُ الْكَلَامَ مَعَ النِّسَاءِ لِلْأَجَانِبِ وَمُحَاوَرَتِهِنَّ عِنْدَ الْحَاجَةِ إلَى ذَلِكَ، وَلَا نُجِيزُ لَهُنَّ رَفْعَ أَصْوَاتِهِنَّ وَلَا تَمْطِيطَهَا وَلَا تَلْيِينَهَا وَتَقْطِيعَهَا لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ اسْتِمَالَةِ الرِّجَالِ إلَيْهِنَّ وَتَحْرِيكِ الشَّهَوَاتِ مِنْهُمْ.اهـ ٤٠٦/١
وجاء في حاشية البجيرمي على الخطيب أنه يَحْرُمُ سَمَاعُ صَوْتِهَا وَلَوْ نَحْوَ الْقُرْآنِ إنْ خَافَ مِنْهُ فِتْنَةً أَوْ الْتَذَّ بِهِ. اهـ ٦٨/١٠
وجاء في كتاب (كشاف القناع) أنه يُحَرَّمُ التَّلَذُّذُ بِسَمَاعِهِ صوت الأجنبية وَلَوْ كَانَ بِقِرَاءَةٍ – أي: بقراءة القرآن الكريم - خَشْيَةَ الْفِتْنَةِ، وَتَقَدَّمَ فِي الصَّلَاةِ:(وَتُسِرُّ بِالْقِرَاءَةِ إنْ كَانَ يَسْمَعُهَا أَجْنَبِيٌّ).اهـ ١٥/٥

ولقد سمع ﷺ تلاوة القرآن من أبي موسى الأشعري[1]، وعبد الله بن مسعود[2]، وسالم مولى أبي حذيفة [3]رضي الله عنهم ، وكان هؤلاء من قرّاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم الذين اشتهروا بحسن الصوت وجودته ، كما سمع ﷺ مديحه من حسان بن ثابت رضي الله عنه[4]، ولكن لم يثبت أنه ﷺ سمع تلاوة القرآن من امرأة قط .

قوله ﷺ: [حجبت الجنة بالمكاره] : جمع مكرَهة وهي ما يشق على النفس ويصعب عليها[5]، فعلى العبد أن يصبر نفسه على عبادة الله تعالى - وإن تعب وشق عليه ذلك - وقد قال الله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي واصبر أنت على أداء الصلاة بآدابها وخشوعها ولا تتعجل فيها.

---

[1] انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

[2] انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

[3] انظر سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

[4] هو الصحابي الجليل حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري الخزرجي، شاعر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، توفي رضي الله عنه سنة ٥٤ هـ وهو ابن عشرين ومائة سنة.
وقد أنشد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال رضي الله عنه:

يا ركن معتمد وعصمة لائذ	وملاذ منتجع وجار مجاور
يا من تخيره الإله لخلقه	فحباه بالخلق الزكي الطاهر
أنت النبي وخير عصبة آدم	يا من يجود كفيض بحر زاخر
ميكال معك وجبرئيل كلاهما	مدد لنصرك من عزيز قاهر

انظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ١/ ٨٢ وأسد الغابة لابن الأثير ١/ ١٨٧

[5] انظر فيض القدير: ٣٨٨١٣

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ - أي التي اطمأنت، أي أقامت على شرع الله تعالى وأوامره ولم تتحول عن ذلك أبداً - ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ - أي عن دين الله تعالى وشرعه - ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ من جانب الله تعالى، فهي راضية عن الله تعالى فيما شرع ، مرضية عند الله تعالى .

وهذا مما يجب على المؤمن أن يتحقق به : وهو أن يتمسك بشرع الله تعالى ونفسُه راضية بما شرع الله تعالى غير متضجرة أو متذمرة أو أنها تتمنى لو أن الله تعالى لم يشرع لها هذا الأمر أو لم يحرم ذاك الأمر مثلاً .

ومن لم يذق قلبُه طعمَ الرضا عن الله تعالى فيما شرع فإنه ما ذاق طعم الإيمان بعد .

جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً [١] ، وبالإسلام ديناً [٢] ، وبمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - رسولاً] [٣] .

ومَن ذاق طعم الإيمان ثبَّته الله تعالى عليه، ومن لا فهو على خطر، لأن بشاشة الإيمان لم تخالط قلبه بعد، بل الإيمان على حافة قلبه، فربما يدخل قلبه وربما يحول ، ونسأل الله تعالى السلامة والعافية. آمين

قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى﴾ أي في زمرة عبادي، وقد أضافهم إليه سبحانه تشريفاً لهم وتكريماً ، أي فادخلي في جملة عبادي الذين ارتضيتهم لقربي وجواري .

---

[١] أي فيما قضى وشرع وحكم .
[٢] أي دِيناً شرعياً يتقرب به إلى الله تعالى .
[٣] في صحيح مسلم في كتاب الإيمان

أو أن كلمة ﴿عِبَادِى﴾ جمع عابد، كصِحاب جمع صاحب، والمعنى: فادخلي في جملة عبادي العابدين لله تعالى، وكفى الإنسان شرفاً أن يكون عبداً عابداً لله تعالى .

قوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِى﴾ أي: في زمرة عبادي الذين توليتُهم بتوليتي الخاصة، وهم الذين أشار إليهم سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فمن أراد أن يتولاه الله تعالى في جميع أموره ولا يكله إلى تولية نفسه فليبذل جهده أن يكون من الصالحين، وعلى قدر صلاحه تكون تولية الله تعالى له.

وطريق الصلاح هو أن يصلح الإنسان عمله، بأن يكون تابعاً لما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يكون مخلصاً فيه لله تعالى، فالصلاح يشمل صلاح العمل باتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وصلاح القلب بالإخلاص لله تعالى .

قوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِى * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ وذلك لأنه اقتحم حجب المكاره النفسية وعمل بطاعة الله تعالى فلم يبق بينه وبين الجنة حجاب ، فقيل لصاحب هذه النفس: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ ، أما في الدنيا فهي جنة الإيمان بي ومحبتي ومعرفتي ؛ وإن محبة الله تعالى ومعرفته هي جنة حقيقية ذاق نعيمها المؤمنون الصالحون ، وهو نعيم لا يماثله نعيم الدنيا مهما عظم ، حتى قال الشيخ العارف الكبير إبراهيم بن أدهم[1] رضي الله عنه:

---

[1] هو سيدي إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر، القُدْوَةُ، الإِمَامُ، العَارِفُ، سَيِّدُ الزُّهَّادِ، البَلْخِي، نَزِيْلُ الشَّامِ. مولده فِي حُدُوْدِ المائَةِ.
قَالَ النَّسَائِيُّ: هُوَ ثِقَةٌ، مَأْمُوْنٌ، أَحَدُ الزُّهَّادِ.
صَحِبَ الثَّوْرِيَّ، وَالفُضَيْلَ بنَ عِيَاضٍ رضي الله عنهما.
ومن أقواله: مَنْ أَرَادَ التَّوبَةَ، فَلْيَخرُجْ مِنَ المَظَالِمِ، وَلْيَدَعْ مُخَالطَةَ النَّاسِ، وَإِلاَّ لَمْ يَنَلْ مَا يُرِيْدُ.
تُوُفِّيَ رحمه الله تعالى ورضي عنه سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّيْنَ وَمائَةٍ، وَقَبْرُهُ يُزَار.
وَتَرْجَمَتُه فِي "تَارِيْخِ دِمَشْقَ" في ثلاثة وثلاثين ورقة.اهـ
انظر سير أعلام النبلاء ٧/ ٧٠

(لو يعلم الملوك وأبناء الملوك - أي ملوك الدنيا - ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا عليه بالسيوف) [1] أي حتى يأخذوه منا.

وقال العارف الكبير الشيخ أبو سليمان الداراني[2] رضي الله تعالى عنه :

(أهل الليل في ليلهم : ألذّ من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا)[3].

وقال رضي الله عنه :(وإنه ليمر بالقلب أوقات إن كان أهل الجنة في مثلها إنهم لفي عيش طيب)[4].

وأما في برازخ الآخرة فينتقل العبد المؤمن من جنة إلى جنة، ويتقلب في النعيم حتى يدخل جنة المأوى، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : [إِنَّمَا الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ] [5] .

واعلم أن الإنسان لا يذوق نعيم الجنة ولذاتها إلا إذا آمن ودخل الإيمان قلبه وذاق طعمَه في الدنيا، فينشئه الله تعالى نشأة فيها حاسة الشعور باللذة والإحساس بالنعيم بكافة أنواعه.

---

[1] انظر الزهد الكبير للبيهقي ٩٢\١ وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ٣٣٢\٣

[2] هو سيدي الإِمَامُ الكَبِيْرُ زَاهِدُ العَصْرِ القدوة أحد الأبدال أَبُو سُلَيْمَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ أَحْمَدَ الدَّارَانِيّ.
وُلِدَ فِي حُدُوْدِ الأَرْبَعِيْنَ وَمائَةٍ.
كان عديم النظير زهداً وصلاحاً، وله كلام رفيع في التصوف والمواعظ.
قَالَ الإمام الجُنَيْدُ رضي الله عنه : شَيْءٌ يُرْوَى عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ أَنَا أَسْتَحْسِنُهُ كَثِيْراً: (مَنِ اشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ شُغِلَ عَنِ النَّاسِ، وَمَنِ اشتَغَلَ بِرَبِّهِ شُغِلَ عَنْ نَفْسِه وَعَنِ النَّاسِ).
وَعَنْهُ: (الفُتُوَّةُ أَنْ لاَ يَرَاكَ اللهُ حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك).
تُوُفِّيَ رحمه الله تعالى ورضي عنه سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ وَمائَتَيْنِ للهجرة النبوية الشريفة .
انظر سير أعلام النبلاء ٣٢٦/٨ و شذرات الذهب ٢٨/٣

[3] انظر إحياء علوم الدين ٣٥٨\١

[4] انظر البداية والنهاية ٤٤٢\١ وفيض القدير ٥٦٧\١

[5] انظر سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

ولو فُرِض جدلاً أن مؤمناً أُخْرِجَ من الجنة وأدخل النار - وهذا لا يقع قطعاً - لكن لو فرض ذلك، لَمَا شعر هذا المؤمن بعذاب النار ولَمَا أحس بألم الحريق، لأن حاسة الشعور بالألم قد أذهبها الله تعالى عنه وأنشأه نشأة لذة ونعيم ، ولا استعداد ولا قابلية عنده للألم والعذاب .

ولذلك لمّا يمر المؤمن على الصراط - وهو جسر منصوب على جهنم - تقول له النار: [جُز يا مؤمن، فقد أطفأ نورُك لهبي][1] أي فلا يؤثر فيك لهب النار لأن إيمانك وقاية لك.

ولو فرض أن كافراً من أهل النار أخرج منها وأدخل الجنة لَمَا أحس بنعيمها ولذاتها، لأنه لا استعداد عنده للتنعم، ولأن حاسة الشعور بالنعيم قد أذهبها الله تعالى عنه وأنشأه نشأة جهنمية نيرانية .

ألا ترى إلى زبانية جهنم وهم في النار يعذِّبون أهل النار ، لكنهم في نعيم مع الله تعالى ولا يشعرون بعذاب النار وآلامها .

ونسأل الله تعالى السلامة والوقاية، ونسأله جل وعلا التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

[1] انظر المعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي

المحاضرة الثانية بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد: بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب من جاهد نفسه في طاعة الله.

ثم أورد بسنده إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه قال :

[بينما أنا رديف النبي ﷺ ، ليس بيني وبينه إلا آخرة الرَّحْل ، فقال : يا معاذ.

قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك .

ثم سار ساعة، ثم قال : يا معاذ .

قلت: لبيك رسول الله وسعديك .

ثم سار ساعة، ثم قال : يا معاذ بن جبل .

قلت: لبيك رسول الله وسعديك .

قال: هل تدري ما حق الله على عباده ؟

قلت: الله ورسوله أعلم .

قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

ثم سار ساعة، ثم قال : يا معاذ بن جبل .

قلت: لبيك رسول الله وسعديك .

قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟

قلت: الله ورسوله أعلم .

قال: حق العباد على الله أن لا يعذبهم][1].اهـ

مجاهدة النفس هي إيقاف النفس عمّا نهى اللهُ تعالى عنه، وحمْلُها على امتثال أوامر الله تعالى، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ .

ومعنى قوله تعالى: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي خاف قيامه بين يدي ربه يوم القيامة للسؤال والحساب ، فحمله هذا الخوف على أن ينهى نفسه عن محارم الله تعالى[2] ، وأن ينهض بها إلى امتثال أوامره سبحانه ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ - أي رجوعهم ومصيرهم - ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾.

فهو سبحانه الذي يحاسب عباده كلهم، ولا تستبعد ذلك على الله تعالى، إذ إنه سبحانه ليس كمثله شيء، وهو القادر على كل شيء، فهو يحاسب جميع عباده في آن واحد وهو سريع الحساب جل وعلا.

أو أن معنى قوله تعالى: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي خاف مقام ربوبيته سبحانه وعظمته وكبريائه ، وخاف أيضاً مقام ربه عليه بالشهود والمراقبة ، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ .

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ .

وقال سبحانه: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

وقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

---

[1] صحيح البخاري كتاب الرقاق

[2] أي: ما حرّمه الله تعالى

فمن راقب رقابة الله تعالى عليه وعلمه سبحانه به واطلاعه على جميع حركاته وتقلباته وسكناته حمله ذلك على الخوفِ منه سبحانه، وإيقافِ نفسه عند حدود الله تعالى، والعملِ بأوامر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي متى ترسو وتستقر، أي: وقد سألوا عن وقت الساعة منكرين وقوعها أو مستبعدين حدوثها، مع أن موت الإنسان هو دخوله في أول برازخ الآخرة، ومن مات فقد دخل باب الآخرة ولا رجعة له إلى الدنيا، والموت آت على كل إنسان فهو قريب إذاً، فما بالُهم يستبعدون الساعة ويستمرون في غفلاتهم وإعراضهم؟!

كما أنه لم يبق من الزمن لقيام الساعة إلا القليل بالنسبة لما مضى على الدنيا من عمر، كما قال صلى الله عليه وسلم لما خطب الناس حتى دنت الشمس من الغروب : [أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ] [1] .

وتفكر في قوله صلى الله عليه وسلم: [فيما مضى منها] - أي الدنيا، ولم يقل: فيما مضى على بني آدم، إذ إن آدم عليه السلام هو آخر المخلوقات على وجه الأرض، وقد مضى على الدنيا قبله زمن طويل لا يعلمه إلا الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ - أي فيم أنت من التذكير بها يا رسول الله، فأنت تذكّر الناس، وما يتذكر منهم إلا القليل، ثم قال سبحانه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ * إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي فلا يتذكر بتذكيرك إلا من تعقل وتدبر وآمن بالآخرة فخشي الله تعالى وخاف عقابه فاتقى ذلك بالعمل بما أمر الله تعالى، واجتناب ما نهى الله تعالى عنه.

أو أن قوله تعالى:﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ﴾أي فيم يسألونك يا رسول الله ، فهم يسألونك: متى ترسو الساعة؟ ففيم هذا السؤال؟

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الفتن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

﴿أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ أي أن بعثتك يا رسول الله من علامات الساعة، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: [بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين إصبعيه السبابة [1] والوسطى] [2] .

فقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا *فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ أي فيم يسألونك؟ أنت من المذكِّرات بقرب الساعة ومن علاماتها .

وإن في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ تذكيراً للإنسان وتنبيهاً له على التزام الأدب مع الله تعالى في دعائه ومناجاته سبحانه وفي الإخبار عنه جل وعلا.

وقد أخبر سبحانه عن ملائكته بقوله جل وعلا: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ مع أن الملائكة عليهم السلام ليسوا من عالم التكليف إلا أنهم يخشون ربهم ويخافون عظمته وكبرياءه وجلاله سبحانه وتعالى.

وإذا أردت أن تعرف أدب العبد مع الرب فانظر إلى أدب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الله تعالى، ولك في الذي كان يسبِّح الله تعالى ويحمده ويثني عليه ويعظِّمه ويكبِّره على وجه انفرد به في العالمين كلهم؛ لك فيه أسوة حسنة ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول:

[وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك] [3] .

---

[1] وتسمى السبابة لأن الإنسان لما يعنف أحداً يشير بها ويحرك يده تجاهه .
وفي رواية: [وَقَرَنَ شُعْبَةُ] أحد رواة الحديث [بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ الْمُسَبِّحَةِ وَالْوُسْطَى يَحْكِيهِ] وسميت المُسبّحة بذلك لأنه يشار بها عند التسبيح. (انظر عمدة القاري ١١\٢٢) ويقال لها :الشاهدة ، لأن المؤمن يشير بها في تشهده .

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجمعة

[3] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الصلاة

وقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ أي الهوى المحرَّم ، والهوى هو ميل النفس ، وإذا أطلق فيراد منه الهوى المذموم ، فينبغي على الإنسان أن يكبح ميول نفسه إلى المحرمات ، ويوقفها عند أوامر الله تعالى حتى يجعل هواه تابعاً لما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يطيب هوى نفسه .

وأما من جعل شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم تابعاً لهوى نفسه

فقد ضل وغوى، وهذا شأن مَن يأخذ مِن شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وافق هواه واستحسنته نفسه، وأما ما خالف هواه مِن شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتركه ويهجره.

ويقال لمن هذا شأنه: أنت متَّبِع لهوى نفسك وآرائك على الحقيقة،

وإنك وإن كنت تعمل بشيء مما جاءك به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأن هذا الشيء وافق هواك وعقلك.

وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبَعاً لما جئت به] [1] ، وفي رواية عند الطبراني: [ثم لا يزيغ عنه] [2] أي يجعل ما تهواه نفسه وتميل إليه تابعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويثبت على ذلك .

---

[1] قال الإمام النووي رضي الله عنه في أربعينه: حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح . اهـ .

[2] قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم عن حديث : [لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به] قال: وقد خرَّج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب " الأربعين " وشرط في أوَّلها أنْ تكونَ من صحاح الأخبار وجياد الآثار مما أجمع الناقلون على عدالة ناقليه، وخرَّجته الأئمة في مسانيدهم، ثم خرَّجه عن الطبراني: حدثنا أبو زيد عبد الرحمن ابن حاتم المرادي، حدثنا نُعيم بن حمادٍ، حدثنا عبد الوهَّاب الثقفي، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين ، عن عُقبة بن أوس، عن عبد الله بن عمرٍو ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : [لا يُؤمِنُ أَحدكم حتّى يكونَ هواه تبعاً لما جئتُ به ثم لا يزيغُ عنه] .اهـ ٤١١١

وهذا معنى قوله ﷺ: [والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عزّ وجلّ][1].

إذ إن هواه يدعوه لأمرٍ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه لأمر يخالفه، فهو يجاهد نفسه ليحملها على متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء عنه.

وقد أورد الإمام البخاري رضي الله عنه هذا الحديث في هذا الباب ليبين أن عبادة الله تعالى هي طريق مجاهدة النفس.

قول سيدنا معاذ رضي الله عنه: [ليس بيني وبينه إلا آخرة الرَّحْلِ] وهي ما يوضع على ظهر الناقة أو الدابة حتى يستند إليها الراكب.

ولقد نادى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً رضي الله عنه مع أنه قريب منه، وذلك حتى يلفت فكره ويستحضر قلبه، وقد ناداه صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات حتى يلفت قلبه وعقله وفكره لأهمية وعظمة ما سيخبره عنه صلى الله عليه وسلم وسيعلّمه إياه.

وإن في ندائه صلى الله عليه وسلم لمعاذ ثلاثاً قبل أن يفيض عليه ما أراد تعليمه له، إن في ذلك تعليماً وإرشاداً للمعلّمين والمذكّرين والواعظين: أن أحدهم إذا أراد تعليم غيره أو تذكيره ووعظه فعليه أن يلفت انتباهه أولاً ويجمع تفكيره وقلبه حتى يكون سامعاً مصغياً لما سيمليه عليه من العلوم والإخبارات والمواعظ، وهذا الأسلوب أعظم في النفع وأرفع في الفهم.

قول معاذ رضي الله عنه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لبيك] أي: أجيبك يا رسول الله مرة بعد مرة، يقال: دعاه فلبّاه أي أجابه .

وقوله: [وسعديك] أي: إن سعادتي في تلبيتي لأمرك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم [2].

---

[1] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٢٢٨٣٣

[2] انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود ٤٣٧١٩

قوله صلى الله عليه وسلم: [هل تدري ما حق الله على عباده ؟] أي: ما هو حق الله تعالى على عباده، والذي يجب أن يؤدوه دون امتنان منهم، بل هو حق واجب أداؤه عليهم؟

قال صلى الله عليه وسلم: [حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً] .

وذلك لأنه سبحانه هو رب العباد كلهم، والخلق كلهم عباد له جل وعلا، فله سبحانه حق عليهم أن يعبدوه لأنه ربهم أي خالقهم ورازقهم ومربيهم وممدهم ، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾- أي لأنه ربكم وأنتم عباده ، ثم بين سبحانه وجوه ربوبيته عليهم فقال عز من قائل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وطالما أن كل مخلوق هو عبد لله تعالى مفتقر إليه في ذاته وذراته وإيجاده وإمداده؛ فعليه أن يعترف ويقر بذلك، وأنه عبد لله جل جلاله لا غنى له عن الله تعالى فليعبدِ العبدُ اللهَ تعالى قياماً بحق الله تعالى عليه.

ومتى استطاع العبد أن يستغني عن ربه فليترك عبادته وأنى له ذلك وهو لا يملك لنفسه شيئاً حتى وجودها؟!.

لأن الله تعالى خلق الإنسان، ولم يستغن الإنسان عن ربه بل هو مفتقر إلى الله تعالى في كل لحظة أن يمده بالوجود والبقاء، ولو قطع عنه مدد الإيجاد لرجع إلى العدم.

ولو كان العبد رب نفسه لرزق نفسه بل لأوجدها على أحسن صورة وخلقة يريدها، ولما أصابه المرض والهرم والموت، مع أنه لا يستطيع إحياء شعرة واحدة سقطت من رأسه إذا أصابه الصلع!

وقد قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ -أي: كلكم فقراء إلى الله تعالى بذواتكم وذراتكم فأنتم محتاجون لإمداد الله لكم في كل لحظة بل في أقل من اللحظة ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: والله وحده سبحانه هو المستغني عن كل ما سواه، والمفتقر إليه ما عداه، وهو سبحانه الغني المحمود في غناه سبحانه، إذ يُمِدُّ خلقه بالعطاء والرزق بأنواعه.

وإذا علم العبد ذلك وجب عليه أن يعترف بعبوديته لله تعالى، وأن يعبده كما شرع له سبحانه لأن في شرعه سبحانه لعباده تهذيباً لهم وإسعاداً وإصلاحاً لهم في الدنيا وفي الآخرة، فإن هم قاموا بعبادته سبحانه فقد قاموا بحق الله عليهم وقاموا بما فيه صلاحهم وسعادتهم.

وقد حَقَّ سبحانه أي أوجب على نفسه كرماً منه وفضلاً أن لا يعذِّب مَنْ عَبَدَهُ ولم يشرك به شيئاً، وليس للعباد حق على الله واجب يطالبونه به ، بل هو سبحانه تفضل عليهم ووعدهم إن هم عبدوه ولم يشركوا به شيئاً أن لا يعذبهم ، وفي رواية : [فَإِنَّ حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَنْ يُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ] [1] ، والله تعالى لا يخلف الميعاد ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾.لا أحد .

وليس في عبادة الإنسان لربه إحراج للعبد ومضايقة له إذ إنه سبحانه لم يكلّفه إلا بما تطيقه نفسه، ولم يشرع له عبادته إلا ليزداد شرفاً وقرباً منه سبحانه، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وفي عبادتهم له سبحانه شرف لهم وإعزاز لهم ورفعة لشأنهم ومكانتهم عند الله تعالى ، لأن مَن تذلل إلى العزيز أعزَّه ، ومَن تقرب إلى الكريم أكرمه، فما بالك -ولله المثل الأعلى- برب العالمين الذي له العزة جميعاً ، وهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين؟! .

---

[1] انظر المسند ٢١٠٥٨

كما أن في عبادة الله تعالى صبغة نورانية ربانية ينصبغ بها العبد العابد لربه، وهذه الصبغة ثابتة ملازمة له لا تنفك عنه أبد الآبدين كما قال تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ -أي الزموا صبغة الله- ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ أي ونحن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم العابدون لله تعالى حق العبادة ، وشَرَفُنا وفَخرُنا في ذلك .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين .

المحاضرة الثالثة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب مَن نوقِش الحساب عُذِّب.

ثم أورد بسنده إلى عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: [ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة، ليس بين الله وبينه ترجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة] .

قال الأعمش: حدثني عمرو عن خيثمة عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

[اتقوا النار، ثم أعرض وأشاح، ثم قال: اتقوا النار، ثم أعرض وأشاح، ثلاثاً، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة] [١].

وفي رواية للحديث : [ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدَّم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة] [٢] .

قال الأعمش: وحدثني عمرو بن مرة عن خيثمة مثله وزاد فيه: [ولو بكلمة طيبة] .

---

[١] صحيح البخاري كتاب الرقاق.
[٢] صحيح البخاري كتاب التوحيد.

وفي رواية للحديث: [وأما العيلة: فإن الساعة لا تقوم حتى يطوف أحدكم بصدقته لا يجد من يقْبلها منه، ثم ليقفن أحدكم بين يدي الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، ثم ليقولن له: ألم أوتك مالاً ؟ فليقولن: بلى، ثم ليقولن: ألم أرسل إليك رسولاً؟ فليقولن: بلى؛ فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتقين أحدكم النار ولو بِشِقِّ تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة][1].

وفي رواية للحديث: [ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه] [2] .

وتكليم الله تعالى هذا لعبده يكون قُبيل السير على الصراط، بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [وينظر [3] بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه]... الحديث ، وقد ورد أن الصراط يُنصب على ظهراني جهنم[4].

وهذا التكليم للسؤال والمحاسبة، ولا بد لكل إنسان أن يكلمه الله تعالى، فإن كان الإنسان مؤمناً صادقاً كان تكليم الله تعالى له للبشارة والتكريم، وأما إذا كان الإنسان كافراً أو منافقاً فيكون تكليم الله تعالى له للزجر والتوبيخ والتعنيف.

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم مخبراً عن الكافرين: ﴿**وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ أي لا يكلمهم كلام رضا وتكريم ، ولكنه كلام توبيخ وتعنيف ، ولا ينظر إليهم نظرة رضا، بل يتجلى بالسخط والغضب عليهم.

فلما ينظر العبد أيمن منه وأشأم منه لا يرى إلا ما قدمه من عمل، وينظر أمامه فلا يرى إلا النار التي سيجتازها على الصراط.

---

[1] في صحيح البخاري كتاب الزكاة
[2] في صحيح البخاري كتاب التوحيد
[3] أي: العبدُ
[4] جاء في صحيح البخاري كتاب الأذان قوله صلى الله عليه وسلم : [فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ].... الحديث

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان] أي: ليس هناك حجاب يحجبه عن ربه ، وليس هناك واسطة في التكليم .

والترجمان - بضم التاء وفتحها -[1] هو الذي يتوسط بين أمرين، كمن توسط لك في تكليم فلان، ويطلق أيضاً على من يترجم لك من لغة إلى لغة.

وموقف العبد هذا بين يدي ربه للسؤال هو موقف رغبة وبشارة وتكريم للمؤمنين المتقين، وموقف رهبة وحذر وشدة للكافرين والفاسقين المصرِّين.

وإن عمل الإنسان محيط به لا يفارقه في برازخ الآخرة كلها، ولذلك يراه العبد عن يمينه وشماله، فإن كان العمل صالحاً فرح صاحبه واستبشر، وإن كان فاسداً حزن وتأسف، وهذا قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ .

والتفات العبد أيمن منه وأشأم منه هو للاستغاثة والخلاص، فإذا كان عمله صالحاً رآه العبد وفرح واطمأن، وإذا كان غير ذلك رآه العبد وحزن واشتد خوفه وفزعه؛ وإذا علم العبد ذلك وعلم أنه لا يغيثه من هول وشدة ذلك الموقف إلا عمله فليحسن عمله في الدنيا، وليتق ربه سبحانه، حتى إذا وقف بين يديه يوم القيامة كان عمله وقاية له من سخط الله تعالى وعذابه، وفرح به واستبشر.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: [ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان] أي ليس بينه وبينه واسطة في المكالمة، وذلك لأن الواسطة قد تخفف وطأة الهيبة وشدة الموقف على العبد، فما أعظم ذلك الموقف وما أشد خطره وهيبته؟!

[1] انظر عمدة القاري ٨٤\١٥

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ - أي قيامه بين يدي ربه للسؤال - ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [اتقوا النار ولو بشق تمرة] ولكي يقي العبد نفسه من النار لا بد له من الأخذ بالوقاية التي تقيه عذاب الله تعالى وغضبه وعتابه وحجابه، وذلك بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى.

وقد أشار ﷺ إلى أن الصدقات تقي صاحبها من النار بقوله عليه الصلاة والسلام: [اتقوا النار ولو بشق تمرة] أي بنصف تمرة[1]- أي إن لم تجد إلا نصف تمرة تتصدق بها فافعل، وأما من كان عنده فلينفق وليتصدق مما أعطاه الله تعالى، فكل عبد يتصدق على حسب ما عنده من إيمان ومال ، كما قال سبحانه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ .

فإذا قصَدك فقير وأنت تعلم حاجته ولم يكن عندك إلا تمرة فعليك عندئذ أن تتصدق بنصفها لكي يقيك ذلك من عذاب الله تعالى إن كنت مخلصاً في ذلك مبتغياً وجه الله تعالى، لا تريد من وراء صدقتك رياء ولا سمعة ولا ظهوراً، كما قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ .

[1] انظر عمدة القاري ٢٧٤\٨

ومَن تصدّق ولو بشيء قليل لكنه مخلص في صدقته فإن الله تعالى ينمّي صدقته ويربّيها حتى تصير يوم القيامة أعظم من الجبل، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [ما تصدق أحد بصدقة من طيِّبٍ [1] ولا يقبل الله إلا الطيِّب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه [2] وإن كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فَلُوَّهُ [3] أو فصيله] [4].

وهذا قوله تعالى: ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ أي ينميها ويضاعفها للمتصدق بها على حسب إخلاصه فيها.

قوله ﷺ: [اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد[5] فبكلمة طيبة] أي فليتصدق بكلمة طيبة يطيب بها قلب أخيه المسلم، وله بذلك أجر الصدقة عند الله تعالى.

وهذا يدل على أن المسلمين كلهم في نظر الشرع أغنياء، فمن كان فقير المال وليس عنده ما يتصدق به فقد شرع الله تعالى له ما يتصدق به وينال به أجر المتصدقين المخلصين.

ومن هذا ما رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ:[يا رسول الله ذهب أهل الدُّثور بالأجور :

يصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم.

قال: أَوَليس قد جعل الله لكم ما تَصَدَّقون؟

---

[1] أي من مال حلال .

[2] وذلك حتى ينميها ويربيها، وليس لأنه محتاج إليها جل وعلا فهو سبحانه الغني عن كل شيء.

[3] قال الإمام النووي في شرحه صحيح الإمام مسلم ٤٥٥\٣: (قَالَ أَهْل اللُّغَة: (الْفَلُوّ) الْمُهْر سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ فُلِّي عَنْ أُمّه، أَيْ : فصل وعزل، وَالْفَصِيل: وَلَد النَّاقَة إِذَا فصل مِنْ إِرْضَاع أُمّه، وَفِي (الْفَلُوّ) لُغَتَانِ فَصِيْحَتَانِ أَفْصَحُهُمَا وَأَشْهَرهمَا: فَتْح الْفَاء وَضَمّ اللَّام وَتَشْدِيد الْوَاو، وَالثَّانِيَة: كَسْر الْفَاء وَإِسْكَان اللَّام وَتَخْفِيف الواو).

[4] أخرجه البخاري ومسلم كلاهما في كتاب الزكاة

[5] أي نصف تمرة يتصدق بها.

إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن منكر صدقة، وفي بُضع أحدكم صدقة.

قالوا : يا رسول الله -ﷺ - أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر][1].

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [كُلُّ سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه: صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق [2]صدقة] [3].

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم: [لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق] [4] أي أن تلقاه ببشاشة وجه.

وفي رواية الترمذي قال صلى الله عليه وآله وسلم: [لا يَحْقِرَنَّ أحدُكم شيئاً من المعروف، وإن لم يجد فَلْيَلْقَ أخاه بوجه طليق، وإن اشتريت لحماً أو طبخت قِدْرًا فأكثر مرقته واغرف لجارك منه] [5].

---

[1] في كتاب الزكاة.
[2] وقد جاءت أحاديث أُخرى تحذّر من وضع الأذى طريق المسلمين أو مواضع جلوسهم وساحاتهم.
[3] صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير.
[4] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب.
[5] سنن الترمذي كتاب الأطعمة.

فالصدقات متنوعة كثيرة، وصدقة كل إنسان على حسب حاله، وليس للغني أن يكتفي بالتسبيحات مثلاً كصدقات دون أن يتصدق من ماله، لأن الصدقة فيها نفع لنفس الإنسان ولغيره، فمن مر على فقير ومعه ما يتصدق به عليه وقال عنده: سبحان الله، ولم يتصدق عليه، فيقال له: نفعت نفسك بالتسبيح ولم ينتفع الفقير من تسبيحك شيئاً، والمطلوب منك أن تنفعه بأن تصله بالمال، فلا تقوم صدقة مقام صدقة أُخرى، بل على الإنسان أن يأخذ بجميع أنواع الصدقات، ويضع كلاً منها في موضعها، فمن كان بحاجة للمال فتصدق عليه بالمال ، ومن كان بحاجة إلى معونة فأعنه، ومن كان بحاجة إلى نصح فانصحه، وهكذا..

ولا يخلُ لسانك من التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والكلام الطيب مع الناس، وأن تلقاهم بالطلاقة والبشاشة، وهذا قوله تعالى: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ**﴾، ومن جملة ما رزقك الله تعالى المال والقوة والبصر والسمع والعلم والجاه ، وهكذا فقد أمرك الله تعالى أن تتصدق وتنفق مما رزقك ، فالكلام الطيب من جملة ما يقي الإنسان عذاب النار، والكلام السيىء مع الناس من جملة أسباب عذاب النار.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء.

فقال ﷺ: [كل شيء خُلِقَ من ماء] .

قال: فأنبئني بعمل إن عملتُ به دخلتُ الجنة .

قال ﷺ: [أفْشِ السلام، وأَطِبِ الكلام، وصِلِ الأرحام، وقم بالليل والناس نيام: تدخل الجنة بسلام] [1] .

[1] في المسند ٩٩٩٦

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: علمني عملاً يدخلني الجنة.

قال ﷺ: [أطعم الطعام، وأفش السلام، وأطب الكلام، وصلِّ بالليل والناس نيام، تدخلِ الجنة بسلام] [١] .

وجاء في الحديث عن أبي شريح رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم - أخبرني بشيء يوجب لي الجنة.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: [طيب الكلام، وبذل السلام، وإطعام الطعام] [٢] .

وفي رواية جيدة للطبراني قال : قلت : يا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - دلني على عمل يدخلني الجنة.

فقال ﷺ: [إن من موجبات المغفرة: بذل السلام، وحسن الكلام] [٣] .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [أطعم الطعام] أي أطعم الطعام أولاً لأرحامك المحتاجين ثم الأقرب فالأقرب، ولا يقتصر إطعامك الطعام على الأغنياء، وعلى من لك عنده حاجة فقط، فإن ذلك دليل نفاقك ، بل عليك أن تكرم المحتاجين، لإيمانهم وصلاحهم وتقواهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ فليكن ميزان الاعتبار والكرم عندك هو تقوى الله تعالى.

قوله ﷺ: [وأطب الكلام] أي مع المسلمين كلهم، لأن الإسلام جمع بينهم وآخى بينهم، وترتب على ذلك حقوق لهم وعليهم، وأما تخصيص طيب الكلام مع من تعرفه فقط فيدل على نقص في إيمانك.

---

[١] قال المنذري في الترغيب : رواه البزار . اهـ كما في كتاب الأدب .

[٢] رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه كما في ترغيب المنذري كتاب الأدب .

[٣] كما جاء في ترغيب المنذري كتاب الأدب .

واعلم أن المؤمن لا يدخل الجنة حتى يطيب قلبُه ولسانه وعمله وحاله، وتطيب كل ذرة فيه، ولو أن فيه ذرة فاسدة لمنعته عن دخول الجنة حتى تطيب، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: [لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ][1]، أي حتى يطهر منها ويطيب، فيؤذن له بدخول الجنة؛ وإن خَزَنة الجنة يقولون لأهل الجنة لما يدخلونها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

وإن أطيب كلمة جامعة لكل طيب، وعنها تنشأ الأقوال والأعمال والأخلاق الطيبة، هي كلمة الإيمان، كلمة (لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) التي أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ* تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وكلما رسخت في قلب المؤمن نواة الإيمان وشجرة (لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) كبرت الشجرة في أغصانها وفروعها وازداد ثمرها من الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [وأفْشِ السلام] أي انشر السلام على من تعرف ومن لم تعرف، طالما أن الإسلام جمع وآخى بين المسلمين، فالسلام حق من حقوق الإسلام يطالَب بإفشائه من كان مسلماً، وليس السلام على الآخرين من باب الفضل والامتنان عليهم.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [وصلِّ بالليل والناس نيام، تدخل الجنة بسلام] يعني صلى الله عليه وآله وسلم بذلك المواظبة على قيام الليل والصلاة لله تعالى فيه.

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب البر والصلة وسنن أبي داود كتاب اللباس

وفي الحديث الذي رواه الطبراني والحاكم واللفظ له عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

[إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها] .

فقال أبو مالك الأشعري -رضي الله تعالى عنه-: لِمَن هي يا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم-؟

قال ﷺ: [لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائماً والناس نيام][1] .

وفي رواية عند الإمام أحمد: [لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائماً والناس نيام] [2] .

وهؤلاء هم أهل المنازل العالية في الجنة وهي الغرف، لأن الغرفة في اللغة تطلق على القصر العالي الذي بنيانه على وجه الأرض[3]، وقد قال تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ .

وفي الحديث الذي رواه البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ] [4] .

وجاء في سنن الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعمَا] [5] .

---

١ مستدرك الحاكم كتاب الإيمان والمعجم الكبير للطبراني

[2] في مسنده ٦٣٢٦

[3] انظر تفسير البغوي ١٠٠١٦

[4] في صحيحه كتاب بدء الخلق

[5] في سننه كتاب المناقب

فهي غرف عالية شفافة لكيلا تحجب صاحبها عن التمتع بالنظر إلى الجنان والحور والقصور وإن كان جالساً داخلها.

وقد استحق هؤلاء ذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فلما أخلص هؤلاء مع الله تعالى في عباداتهم وصلواتهم سواء كانوا يصلون مع الناس أو في بيوتهم بحيث لا يراهم أحد، فهم مخلصون لله تعالى دوماً في الظاهر أمام الناس، وفي الباطن لما يقومون الليل حيث لا يراهم أحد، فصار هؤلاء من أهل العمل الظاهر والباطن، أي من أهل العمل الذي ظهر للناس، ومن أهل العمل الذي بطن عن الناس وخفي عنهم ولم يعلم به إلا الله تعالى، فحق لهؤلاء أن يدخلوا غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، يراها جميع أهل الجنة ويعرفون أن هذا القصر العالي قصر فلان وذاك قصر فلان وهكذا.

ونسأل الله تعالى ذلك من فضله، وأن يجعلنا من رفقاء أكرم خلقه عليه، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. آمين

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة الرابعة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب

ثم أورد بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : [عُرضت علي الأمم ، فأخذ النبي يمر معه الأمّة ، والنبي يمر معه النفر ، والنبي يمر معه العشرة ، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير ، قلت : يا جبريل هؤلاء أمتي ؟

قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمّتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدَّامهم لا حساب عليهم ولا عذاب .

قلت : ولمَ ؟

قال : كانوا لا يكتوون ، ولا يسْتَرْقون ، ولا يتطيّرون ، وعلى ربهم يتوكلون .

فقام إليه عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال : ادع الله أن يجعلني منهم.

قال : اللهم اجعله منهم .

ثم قام إليه رجل آخر قال : ادع الله أن يجعلني منهم .

قال : سبقك بها عكاشة] [1]. اهـ

[1] صحيح البخاري كتاب الرقاق

رواية : [فأخذ النبيُّ] - بالضم على أنه فاعل - ، وفي رواية أخرى للبخاري : [فأجد النبيَّ][1] - بالفتح على أن إعراب الكلمة للمفعولية.

ولقد كان عرض الأنبياء وأممهم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة إسرائه ومعراجه صلى الله عليه وسلم ، كما قال بعض العلماء [2].

وقال العارفون رضي الله عنهم : لقد عرضت الأنبياء وأممهم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرات متعددة ، في ليلة الإسراء وغيرها ، لأنه وردت عدة أحاديث عن الصحابة الكرام تتعلق بهذا الأمر ، وذلك بعد هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة [3].

ولقد كان هذا العرض حقيقياً عن طريق الشهود العياني في اليقظة لا عن طريق الرؤية المنامية، وإلا لكان أخبر عن ذلك صلى الله عليه وسلم كما هو عادته إذا حدث عن منام قال ﷺ : [رأيت][4] .

وفي رواية للحديث: [فجعل النبي يمرّ] [5] أي فكل نبي مرَّ ومعه أتباعه.

---

[1] انظر فتح الباري ٣٨٩\١٨

[2] انظر شرح القسطلاني ٣١٥\٩

[3] انظر الأدلة على ذلك فيما ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٤٠٧/١١ في باب:[يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب] وانظر روايات الحديث الشريف التي ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره ٨٢/٢ عند كلامه حول قول الله تعالى : ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾.

[4] ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري في كتاب البيوع قوله صلى الله عليه وسلم: [رأيت الليلة رجلين] ... الحديث، وانظر الحديث الشريف في بداية المحاضرة الحادية عشرة من هذا الكتاب وفيه قوله صلى الله عليه وسلم :[بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ...].

[5] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٣٦١٥

قوله صلى الله عليه وسلم: [ورأيت سواداً كثيراً] [1] والسواد في الأصل ضد البياض ، ويطلق أحياناً على الشبح الذي يراه الإنسان من بعيد ولا يستطيع تمييزه أو عدّه[2]، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما عرض عليه أشباحاً كثيرة ، فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال له : [هذا موسى في قومه] كما في رواية للبخاري[3] .

ثم رأى صلى الله عليه وسلم سواداً أعظم من ذلك السواد وقد سد الأفق من الجهات كلها - كما دلت عليه روايات الحديث[4] - فقال له جبريل عليه السلام: [هؤلاء أمتك - أي يا محمد صلى الله عليه وسلم] .

وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[فَرَأَيْتُهُمْ فَأَعْجَبَتْنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيْئَاتُهُمْ، قَدْ مَلَئُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ، فَقَالَ - جل وعلا- : أَرَضِيتَ يَا مُحَمَّدُ؟ - صلى الله عليه وسلم - فَقُلْتُ: نَعَمْ][5]... الحديث

وفي رواية أبي نعيم قال صلى الله عليه وسلم : [رَضِيتُ يَا رَبِّ][6] فإن أعظم الأمم اتباعاً لنبيّها هي أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم أكثر الأمم عدداً والحمد لله .

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الطب
[2] انظر شرح القسطلاني ٣٨٩\٥
[3] في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء
[4] انظر شرح القسطلاني ٣١٥\٩
[5] المسند ٤١١١
[6] انظر حلية الأولياء

وقد يلتبس على الإنسان أنه صلى الله عليه وسلم كيف سأل جبريل عن أمّته وقد ورد في حديث آخر أنه يعرفهم بعلامة الغرة والتحجيل[1] ؟!

فيقال : لقد عرضت عليه أمته صلى الله عليه وسلم قبل أن يخلقها الله تعالى في هذا العالم الدنيوي التكليفي ، فلم تكن علامة الغرة والتحجيل [2] ظاهرة عليهم لأنهم لم يخلقوا في عالم الدنيا بعد ولم يتوضؤوا ولم يصلوا بعد .

أما علامة الغرة والتحجيل فتكون ظاهرة عليهم لما يردون عليه الحوض يوم القيامة، فيعرفهم صلى الله عليه وسلم بهذه العلامة من بين سائر الأمم، بحيث لو تقدم أحد من أتباع الأنبياء ليشرب من حوضه صلى الله عليه وسلم لدفعه صلى الله عليه وسلم إلى حوض نبيّه، لأنه لا استعداد لغير أمته صلى الله عليه وسلم أن يشربوا من حوضه صلى الله عليه وسلم مباشرة ، وإن كانت حياض الأنبياء كلهم تستقي وتستمد من حوضه صلى الله عليه وسلم .

ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّته الذين يأتون من بعده ويتبعونه ، وهم أمة الإجابة أي الذين استجابوا لدعوته صلى الله عليه وسلم وآمنوا به واتبعوه . اللهم اجعلنا منهم .

---

[1] روى الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:[إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ، لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ، وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ].

[2] الغرة : أنوار في الوجه ، والتحجيل : أنوار في اليدين والقدمين التي أصابها ماء الوضوء في الدنيا ، وهذه علامة المؤمن المحمدي يوم القيامة . اهـ انظر تحفة الأحوذي ١٤٢١٢

وأما أمة الدعوة : فهم من بلغتهم دعوته صلى الله عليه وسلم وإن لم يؤمنوا به ، فجميع من على وجه الأرض منذ بعثته صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين هم أمة الدعوة ، فمنهم من أجاب دعوته صلى الله عليه وسلم وآمن ، ومنهم من أعرض وكفر .

وهؤلاء الذين آمنوا به صلى الله عليه وسلم واتبعوه هم أمة الإجابة والاتباع الذين نالوا الفضيلة والشرف على غيرهم من مؤمني الأمم السابقة، وقال فيهم سبحانه وتعالى :﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي كنتم خير أمة خيّرة .

واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يباهي بكثرة أمته المتبعة له صلى الله عليه وسلم يباهي بهم الأنبياء والأمم السابقة، فمن آمن به واتبعه صلى الله عليه وسلم فله البشرى بأن كان سبباً في زيادة أتباعه صلى الله عليه وسلم، وإدخال الفرح والسرور على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسوف يباهي به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

قول جبريل عليه السلام: [وهؤلاء سبعون ألفاً قُدّامهم لا حساب عليهم ولا عذاب] أي أن هؤلاء جمع آخر .

وجاء في بعض الروايات : ثُمَّ نَهَضَ - أَي النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ - بعد أن حدّث بهذا الحديث - فَخَاصَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ بَعْضهمْ : فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ - وهكذا اختلف الصحابة الكرام في أقوالهم حول هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب - فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ ﷺ : [هُمُ الَّذِينَ كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ][1] .

يعني أنهم أهل التوكل الخاص.

[1] انظر فتح الباري ٣٨٩\١٨

قوله صلى الله عليه وسلم: [لا يكتوون] أي لا يتعاطون الكيّ ، وإن كان الكي سبباً مباحاً لكنه غير قطعي .

وقال بعضهم: إنهم لا يتعاطون الكي لأن فيه شيئاً من الكراهة وإن كان جائزاً فعله لكن تركه أولى وهم لا يفعلون خلاف الأولى.

قوله صلى الله عليه وسلم: [ولا يتطيرون] أي لا يتشاءمون من أي شيء.

قوله صلى الله عليه وسلم: [ولا يسترقون] أي لا يطلبون من غيرهم أن يرقيهم ، والرقيا : هي جملة تعاويذ بآيات قرآنية وأسماء إلهية يقرؤها الراقي على المصاب .

وهم لا يسترقون لأن في طلبهم هذا نوعاً من الاتكال على الواسطة والميل إليها وهي (الراقي) ، ولكن هؤلاء يرقون أنفسهم بأنفسهم .

وفي رواية مسلم زيادة: [لا يرقون][1] أي لا يرقون أنفسهم أيضاً لأنهم أهل توكل خاص على الله تعالى .

وإذا قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ثبت أنه رقَى نفسه [2]ورقَى بعض الصحابة الذين سألوه ذلك[3]؟

---

[1] انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان

[2] روى الإمام البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بـ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ وبالمعوِّذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده]... الحديث

[3] روى البخاري في صحيحه عَن السيدة عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: [كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ بَعْضَهُمْ يَمْسَحُهُ بِيَمِينِهِ : أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا].
وروى ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:[جاء النبي صلى الله عليه وسلم يعودني فقال لي: ألا أرقيك برقية جاءني بها جبرائيل؟ قلت: بأبي وأمي بلى يا رسول الله، قال: بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء فيك { **وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** } ثلاث مرات.

فيقال : إن أفعاله صلى الله عليه وسلم لجميع طبقات الناس وليبين مشروعية الرقيا والاسترقاء ، ولو أنه لم يَرْق أحداً ولم يأذن لهم أن يسترقوا لفُهِم أنها حرام ، ففعله صلى الله عليه وسلم لبيان جواز الحكم .

وأهل التوكل الخاص هؤلاء المذكورون في الحديث الشريف هم أهل التسليم المطلق لله تعالى فلا يتعاطون شيئاً من هذه الأسباب ، ولما كان نيل هذا المقام عزيزاً كان عدد أهله قليلاً محدوداً ، وهم سبعون ألفاً ، وكان أجرهم عظيماً ، فهم يدخلون الجنة بغير حساب .

وإن الذي حمل هؤلاء على ترك التعاطي بالأسباب هو ما أكرمهم الله تعالى به من قوة اليقين به وصدق التوكل عليه ، وأما من ادعى ترك الرقيا وتعاطي الدواء وهو يفتقد يقين هؤلاء وقوة توكلهم فقد حرم نفسه ما أباح الله تعالى له من الأسباب ، وهو يفتقر إلى ما يقوم مقامها من الثقة بالله تعالى وصدق التوكل عليه سبحانه .

ومِن أهل التوكل الخاص على الله تعالى الصحابية الجليلة السيدة أم أيمن بَرَكة الحبشية حاضنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما خرجت من مكة تريد الهجرة إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام جرّدها المشركون من مالها ومتاعها ، فأخذت الطريق إلى المدينة المنورة ، وكانت صائمة ، ولم تجد ما يطفئ ظمأها لما غربت الشمس ، فتدلى لها من السماء دلو وشربت منه حتى ارتوت ، ولم تشْكُ بعد شربها هذا ظمأً طيلة حياتها حتى إنها كانت تصوم الهواجر - أيام الحر الشديد -[1].

[1] روى عبد الرزاق في مصنفه عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ: (خَرَجَتْ أُمُّ أَيْمَنَ مُهَاجِرَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ وَهِيَ صَائِمَةٌ، لَيْسَ مَعَهَا زَادٌ وَلا حَمُولَةٌ وَلا سِقَاءٌ، فِي شِدَّةِ حَرِّ تِهَامَةَ، وَقَدْ كَادَتْ تَمُوتُ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْحِينُ الَّذِي فِيهِ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، سَمِعَتْ حَفِيفًا عَلَى رَأْسِهَا، فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا، فَإِذَا دَلْوٌ مُعَلَّقٌ بِرِشَاءٍ أَبْيَضَ، قَالَتْ: فَأَخَذْتُهُ بِيَدَيَّ، فَشَرِيْتُ مِنْهُ حَتَّى رُوِيتُ، فَمَا عَطِشْتُ بَعْدُ، قَالَ: فَكَانَتْ تَصُومُ وَتَطُوفُ لِكَيْ تَعْطَشَ فِي صَوْمِهَا، فَمَا قَدَرَتْ عَلَى أَنْ تَعْطَشَ حَتَّى مَاتَتْ).

فهؤلاء وإن لم يحمل أحدهم زاداً في سفره - أي لم يتعاط سبب الأكل والشرب - فإن قوة توكله وثقته بالله تعالى هي عين الأخذ بالسبب ، فمثل هؤلاء يكون في كرامة الله تعالى ورعايته دائماً أبداً .

واعلم أن هؤلاء قد تركوا تعاطي الأسباب المباحة فقط لقوة توكلهم على الله تعالى وثقتهم به سبحانه .

ولما جاء الصديق الأكبر رضي الله عنه بماله كله إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ﷺ :[يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟

فَقَالَ : أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ][1].

وليس عند غير الصديق رضي الله عنه قوة توكل وثقة ويقين بالله تعالى تمكنه من التجرد عن ماله كله، ولذلك أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد تزود رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين إباحة ذلك ، لأن أفعاله وأقواله صلى الله عليه وسلم تشريع لكافة الناس على مختلف درجاتهم، ففعله صلى الله عليه وسلم ليبين للناس جوازه، وإن لم يفعله لَفَهِموا حرمته ، وطالما أنه مباح كان فعله صلى الله عليه وسلم له واجباً في حقه ليبين للناس أحكام شريعة الله تعالى . ومن هنا تفهم جهل وحماقة من يتشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقيس أفعاله صلى الله عليه وسلم على نفسه .

وافهم من هنا -أيها العاقل- الحكمة في زواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة زينب رضي الله عنها ، وذلك حتى يبين جواز الحكم ، وهو زواج الإنسان مِن مطلقة مَن كان يدعي أبوته ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

---

[1] انظر سنن الدارمي كتاب الزكاة وسنن الترمذي كتاب المناقب وسنن أبي داود كتاب الزكاة

وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمّته صلاة النوافل قبل المكتوبة وبعدها ولم يواظب على فعلها لئلا يُفهم فرضيتها .

فعلى المؤمن أن يواظب على فعلها عملاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلباً للأجر والثواب .

واعلم أن رقيا الإنسان لنفسه إذا كان حاضر القلب أفضل من أن يسترقي من غيره إلا إذا كان ذاك الرجل أقرب إلى الله تعالى منه .

واعلم أن التوكل الخاص على الله تعالى لا ينال إلا بعد معرفة بالله تعالى خاصةٍ ، وليس الأمر باللسان ، ولو أن المؤمن توكل على ربه التوكل العام المطلوب منه لرزقه كما يرزق الطير ، فما بالك إذاً بأهل التوكل الخاص!

وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ] - وهذا هو التوكل العام، وإلا فأين الطير من أهل التوكل الخاص - [لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا] [1].

ولو أنك وكلت إنساناً في أمرٍ ما كشراء أو بيع ونحوه ثم قلت له: لا تفعل شيئاً إلا بعد أن تراجعني فيه، لقال لك: فما هذه الوكالة التي وكلتني إياها؟!

فلو وكل المؤمن أموره إلى ربه واتخذ ربه وكيلاً لرضي بأفعاله تعالى وتقبل ما يجري عليه من قضاء الله وقدره.

فما باله يقول: توكلت على الله، وإذا لقي ما يكره تضجر واعترض فأين توكله؟!

نعم كل ذلك يدخل تحت التوكل العام، أما أهل التوكل الخاص فهم أرفع درجة وأعلى مكاناً وكرامة عند الله تعالى.

ولما كان الناس على مراتب في معرفتهم برب العالمين، فهم أيضاً على مراتب في توكلهم، فتوكل كل إنسان على ربه يكون على حسب معرفته بربه سبحانه.

---

[1] سنن الترمذي كتاب الزهد

ولا تنافي بين تعاطي الأسباب والتوكل على الله تعالى ، بل على الإنسان مثلاً أن يتعاطى أسباب الرزق دون أن يعتمد على الأسباب بل يعتمد على خالق الأسباب ومسبِّبها الذي إن شاء أعملها وإن شاء أهملها .

وإن أعظم مَن نال أعلى مقام في التوكل الخاص على الله تعالى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء في صفته صلى الله عليه وسلم في التوراة -بعد أن ترجمها الصحابة إلى العربية- ما رواه البخاري عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: [لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَاةِ.

قَالَ: أَجَلْ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ] - أي لكمال توكله على الله تعالى - [لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا][1].

وقال تعالى في محكم تنزيله : ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ .

ويوم حنين لما أصاب المؤمنين الفزع وتراجعوا تَقَدَّمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده أمامهم مشجعاً لهم وهو يقول:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ [2]

وجاء في مسند الإمام أحمد عن أمير المؤمنين سيدنا عليّ رضي الله عنه قال: [كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ] - أي في المعارك - [وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ][3].

---

[1] صحيح البخاري كتاب البيوع

[2] انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير

[3] انظر المسند ١٢٧٦

- وفي رواية قال - أي سيدنا عليّ كرم الله وجهه - : [لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا][1]لأنه صلى الله عليه وسلم حرز للأميين وحِصن حصين لمن لجأ إليه، كيف لا وهو سيد المتوكلين على الله تعالى وإمامُهم وأمامَهم .

وقد بلغ من فضل الله تعالى على أهل التوكل الخاص الذين جاء ذِكرهم في الحديث السابق أن يدخلهم الجنة بغير حساب، ويشفعوا بغيرهم كما في رواية الترمذي أنه ﷺ قال : [وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا][2]... الحديث.

وفي رواية الإمام أحمد: [فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا] [3] أي بشفاعته بغير حساب أيضاً، ونسأل الله تعالى ذلك من فضله مع سيد الأحباب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين .

---

[1] المسند ٦١٩

[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

[3] طرف حديث في المسند ١٦١٣

المحاضرة الخامسة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَردِزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب

ثم أورد بسنده إلى أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:[يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيُّ يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ].

وأورد بسنده إلى سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:[لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ سَبْعُ مِائَةِ أَلْفٍ] - شَكَّ فِي أَحَدِهِمَا[1] - [مُتَمَاسِكِينَ، آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ الْجَنَّةَ، وَوُجُوهُهُمْ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ][2].اهـ

---

[1] والشك من أبي حازم رحمه الله - أحد رواة هذا الحديث الشريف .
انظر شرح القسطلاني ١٩ \ ٣١٧

[2] صحيح البخاري كتاب الرقاق

وفي هذا الحديث يبيّن صلى الله عليه وسلم صفة نورانية وجوه هؤلاء الزمرة لما يدخلون الجنة، وأن وجوههم تضيء إضاءة القمر ليلة البدر، وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله : [أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ] [1] أي في إضاءته ، ولا شك أن هؤلاء يدخلون الجنة بعد دخول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقد جاء في الحديث الشريف بيان صفة هؤلاء السبْعِين ، فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : [يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ][2] فهم أهل التوكل الخاص على الله تعالى .

وعُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ رضي الله عنه : بتشديد الكاف وفتحها ، وتلفظ أيضاً بتسهيل الكاف وفتحها، هو الصحابي المعروف، من السابقين إلى الإسلام، ومن الذين شهدوا بدراً وغيرها من الغزوات ، وقد استشهد رضي الله عنه في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الحروب مع أهل الردة [3].

وفي رواية أنه ﷺ قال له : [أنت منهم] [4] ، ولا تنافي بين الروايتين ، إذ دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ثم أخبره بأن الأمر محقق ثابت ، لأن دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم محقق الإجابة.

قوله صلى الله عليه وسلم : [سبقك بها عكاشة] لا يعني أن الرجل ليس من أهل الجنة، إذ لم يقل له صلى الله عليه وسلم: (أنت لست منهم)، ولكنه صلى الله عليه وسلم أراد من وراء ذلك أموراً ، منها : أن يكون الإنسان عالي الهمة ، عظيم الرغبة إلى الأمور التي امتدحها الشارع ورَغَّب فيها ، وأن يكون من الأوائل السابقين إلى طلبها ، وهذا هو قوله صلى الله عليه وسلم: [سبقك بها عكاشة] .

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق
[2] صحيح البخاري كتاب الرقاق
[3] فتح الباري ١٨ \ ٣٨٩
[4] طرف حديث في صحيح الإمام مسلم كتاب الإيمان

وأما ما ورد في بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم قال له ذلك لنفاق فيه ، فهي روايات ضعيفة مردودة [١]، لأن رواية البخاري رضي الله عنه :

[فقام رجل من الأنصار] ، وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين نصروا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهم معروفون بالصدق والإخلاص ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : [آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار] [٢] .

وفي رواية عند الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَكْرٍ السَّهْمِيُّ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مِهْرَانَ عَنْ مُوسَى بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:[إِنَّ رَبِّي أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَهَلَّا اسْتَزَدْتَهُ، قَالَ: قَدْ اسْتَزَدْتُهُ] - أي طلبت الزيادة منه سبحانه - [فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا، قَالَ عُمَرُ: فَهَلَّا اسْتَزَدْتَهُ، قَالَ: قَدِ اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي هَكَذَا.

وَفَرَّجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَكْرٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَبَسَطَ بَاعَيْهِ وَحَثَا عَبْدُ اللَّهِ، وقَالَ هِشَامٌ: وَهَذَا مِنَ اللَّهِ لَا يُدْرَى مَا عَدَدُهُ] [٣].
وفي مسند الإمام أحمد أيضاً عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أُعْطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَقُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَرَأَيْتُ أَنَّ ذَلِكَ آتٍ عَلَى أَهْلِ الْقُرَى وَمُصِيبٌ مِنْ حَافَّاتِ الْبَوَادِي] [٤].

---

[١] انظر فتح الباري ١٨ \ ٣٨٩
[٢] صحيح البخاري كتاب الإيمان
[٣] المسند ١٦١٣
[٤] المسند ٢٢

وجاء في سنن الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

[وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِهِ].

يقال في اللغة:[1] حثا يحثو ، وحثا يحثي ، وحثية وحثوة ، بمعنى غَرَف غَرْفة.

وهذا الفضل الإلهي الذي نالته هذه الأمّة إنما هو بسبب رسولها صلى الله عليه وسلم وإكراماً له عليه الصلاة والسلام، فقد أعطاه الله تعالى مَن يدخل الجنة من أمّته بغير حساب، وهم سبعون ألفاً - وهم أهل الأصالة في المقام - ويدخل مع كل واحد سبعين ألفاً بغير حساب أيضاً ، وهناك ثلاث حثيات من حثيات الله تعالى يدخلهم الجنة بغير حساب أيضاً .

فما أعظم هذا النبي صلى الله عليه وسلم عند الله تعالى !

وما أكرمه على الله تعالى!

وما أعظم رأفته ورحمته بأمته صلى الله عليه وسلم!

كل ذلك يدخل في قوله تعالى :

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ .

[1] انظر لسان العرب ١٦٤\١٤ مادة: حثا

وقد جاء في مسند الإمام أحمد عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ:

[أَكْثَرْنَا الْحَدِيثَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ثُمَّ غَدَوْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ اللَّيْلَةَ بِأُمَمِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعِصَابَةُ[1]، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى مَعَهُ كَبْكَبَةٌ[2]مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَعْجَبُونِي فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقِيلَ لِي: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى، مَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، قَالَ: قُلْتُ: فَأَيْنَ أُمَّتِي؟ فَقِيلَ لِيَ: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا الظِّرَابُ[3]قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ، ثُمَّ قِيلَ لِيَ: انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا الْأُفُقُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ، فَقِيلَ لِي: أَرَضِيتَ؟ فَقُلْتُ: رَضِيتُ يَا رَبِّ، رَضِيتُ يَا رَبِّ.

قَالَ: فَقِيلَ لِي: إِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فِدًا لَكُمْ أَبِي وَأُمِّي، إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ الْأَلْفِ فَافْعَلُوا، فَإِنْ قَصَّرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الظِّرَابِ، فَإِنْ قَصَّرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْأُفُقِ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ ثَمَّ نَاسًا يَتَهَاوَشُونَ.

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنَ السَّبْعِينَ، فَدَعَا لَهُ، فَقَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: قَدْ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ.

قَالَ: ثُمَّ تَحَدَّثْنَا فَقُلْنَا: مَنْ تَرَوْنَ هَؤُلَاءِ السَّبْعُونَ الْأَلْفُ؟ قَوْمٌ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا حَتَّى مَاتُوا.

فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ][4].

---

[1] بِكَسْر الْعين، وَهِي الْجَمَاعَة من النَّاس لَا وَاحِد لَهَا، وَهُوَ مَا بَين الْعشْرَة إِلَى الْأَرْبَعين . اهـ انظر عمدة القاري ١/١٥٤

[2] أي جماعة .

[3] قال النووي في شرحه صحيح مسلم: وَأَمَّا الظِّرَابُ فَبِكَسْرِ الظَّاءِ الْمُعْجَمَةِ وَاحِدُهَا ظَرِبٌ بِفَتْحِ الظَّاءِ وَكَسْرِ الرَّاءِ وَهِيَ الرَّوَابِي الصِّغَارُ.اهـ ٦/١٩٣

[4] المسند ٣٦١٥

وفي رواية عند الإمام أحمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[فَرَأَيْتُهُمْ فَأَعْجَبَتْنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيْئَاتُهُمْ، قَدْ مَلَئُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ، فَقَالَ - جل وعلا-: أَرَضِيتَ يَا مُحَمَّدُ؟ -صلى الله عليه وسلم- فَقُلْتُ: نَعَمْ][1]... الحديث

وقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ][2] .

وروى الطبراني عن عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ رَبِّي وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ يَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ يَحْثِي رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِكَفَّيْهِ ثَلَاثَ حَثَيَاتٍ .

فَكَبَّرَ عُمَرُ- رضي الله عنه- وَقَالَ: إِنَّ السَّبْعِينَ الْأُولَى لَيُشَفِّعُهُمُ اللَّهُ فِي آبَائِهِمْ، وَأَبْنَائِهِمْ، وَعَشَائِرِهِمْ، وَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَنِي اللَّهُ فِي إِحْدَى الْحَثَيَاتِ الْأَوَاخِرِ][3].

وهذا هو شأن الأكابر رضي الله عنهم ، أن أحدهم كلما ازداد معرفة بالله تعالى ازداد خشية منه سبحانه ، وازداد تواضعاً وذلّاً لله سبحانه وتعالى ، وقد قال سبحانه: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ**﴾ .

---

[1] المسند ٤١١١

[2] سنن الترمذي كتاب صفة الجنة وسنن ابن ماجه كتاب الزهد وسنن الدارمي كتاب الرقاق

[3] المعجم الأوسط للطبراني واللفظ له وصحيح ابن حبان كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة

جاء في سنن الترمذي أن السيدة عَائِشَةَ أم المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق رضي الله عنهما قَالَتْ:

[سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾

قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟

قَالَ: لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ][1].

ثم قال سبحانه في وصف هؤلاء:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾

فهم من الله تعالى على رجاء ، ومن أنفسهم على تخوف وحذر .

قوله صلى الله عليه وسلم : [مع كل ألف سبعون ألفاً] أي بشفاعتهم ، فهل هم معهم في الدخول إلى الجنة ، أم أنهم يتأخرون عنهم في الدخول لكنهم معهم من حيث لا حساب عليهم ؟

إن ظاهر الأمر أنهم يتأخرون عنهم في دخول الجنة ولكنهم معهم من حيث إنه لا حساب عليهم .

[1] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن وسنن ابن ماجه كتاب الزهد

وهناك من قال إنهم معهم في دخول الجنة لقوله صلى الله عليه وسلم :

[المرء مع مَن أَحَبّ] [1] فيجعل الله تعالى بين المحب ومحبوبه معيّة لا تنفك .

وقد ذكر صلى الله عليه وسلم في الحديث أن هؤلاء يدخلون الجنة وهم متماسكون ، فلا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم - أي أنهم يدخلون الجنة دفعة واحدة وصفاً واحداً - فقد روى البخاري عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:[لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ سَبْعُ مِائَةِ أَلْفٍ] - شَكَّ فِي أَحَدِهِمَا[2] - [مُتَمَاسِكِينَ، آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ الْجَنَّةَ، وَوُجُوهُهُمْ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ][3].اهـ

ولما كانت الجنة واسعة كبيرة عرضها السماوات والأرض كانت أبوابها تناسب سعتها ، لأن أبواب مدخل الشيء تكون على حسب سعة الشيء .

---

[1] قال الحافظ السيوطي في الجامع الكبير :
[المرء مع من أحب]: مالك فى رواية معن ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي عن أنس .
البخاري ، ومسلم عن ابن مسعود .
ابن منيع ، وأبو نعيم فى الحلية ، والضياء عن أبي ذر .
عبد بن حميد ، وأبو عوانة عن جابر .
أحمد ، والبخاري عن أبي موسى .
الطبراني ، والشيرازي في الألقاب ، وابن عساكر عن عروة بن مضرس .
الطيالسي ، وأحمد ، والترمذي - حسن صحيح - وابن خزيمة ، والطبراني ، وابن حبان ، والضياء عن صفوان بن عسال .
أبو عوانة ، وابن قانع ، والطبراني ، والضياء عن صفوان بن قدامة .
الطبراني عن ابنه عبد الرحمن .
الطبراني عن معاذ .اهـ

[2] والشك من أبي حازم رحمه الله - أحد رواة هذا الحديث الشريف .
انظر شرح القسطلاني ١٩\ ٣١٧

[3] صحيح البخاري كتاب الرقاق

وكل واحد من هؤلاء الزمرة يدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر - أي ليلة بُدوره وظهور نوره - ولا بد للأقمار من نور تستمد منه ، وهي شمس الذات المحمدية صلى الله عليه وسلم ، التي أضاءت وجوه هؤلاء حتى صاروا أقماراً في إضاءتهم . اللهم ألحقنا بهم.آمين

وقد دخل هؤلاء الجنة متماسكين حتى يكون كل واحد منهم على طمأنينة أن أصحابه وأحبابه معه ، وفي هذا من اللذة والنعيم ما فيه .

كما أن في دخولهم متماسكين صفاً واحداً تكريماً وتوقيراً لهم كلهم، وأن لكل منهم مقامه ورتبته ، والفضل في هذا كله للإمام الأعظم الذي تقدَّمهم وفتح لهم أبواب الجنة صلى الله عليه وسلم .

وأما الزمرة التي تلي تلك الزمرة الأولى في دخول الجنة فيدخلون على مثل صورة أشد كوكب في السماء إضاءة ، كما جاء في الحديث :

[إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً][1].

وما هذا النور إلا نور الإيمان ، الذي سيظهر جلياً للمؤمنين يوم القيامة على وجوههم وأجسادهم يضيء لهم في البُعد على حسب قوة إيمانهم ، وذلك لأن الدار الآخرة هي الحاقّة ، أي دار تكشف عن حقيقة ما انطوى عليه كل إنسان .

وإن الموت هو أول برزخ من برازخ الآخرة يدخله الإنسان ويبقى فيه معذَّباً إن كان كافراً ، ومنعَّماً إن كان مؤمناً إلى أن تقوم الساعة ، إذ إن إقامته في عالم البرزخ مؤقتة ، ولذلك جاء البيان الإلهي عن ذلك بكلمة : (الزيارة) ، فقال الله تعالى : ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

أي ولا بد للزيارة من أَجَل ، ولما سمع أعرابي قارئاً يقرأ هذه الآية صاح وقال: (بعث القوم ورب الكعبة) [1].

وكما أن للإيمان والطاعات أنواراً تظهر على صاحبها يوم القيامة وتضيء له على حسبها ، كذلك فإن للكفر والمعاصي ظلمات تظهر على صاحبها وتظلم ما حوله ، كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ * أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ . اللهم اجعل لنا من لدنك نوراً .

وقال الله جل وعلا :

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ الآية ، ونور الله تعالى لا يحجبه شيء ولا يقاومه شيء ، فإذا أشرق نور الله تعالى في قلب المؤمن انعكس على مداركه وجوارحه حتى يغمره النور من جميع الوجوه والاعتبارات والجهات ، وهذا هو نور الإيمان الكامل .

وأما من لم يتحقق بالإيمان الكامل فقد يستنير قلبه ولا يصل هذا النور إلى بصره مثلاً ، فتراه يمتد بصره إلى الحرام ، إذ لو استنار بصره لما وقع في الحرام لأن المحرمات ظلمات ، والطاعات أنوار تطرد الظلمات .

ولما دخل رجل من التابعين على سيدنا عثمان رضي الله عنه أيام خلافته - وكان هذا الرجل قد وقع بصره في الطريق على امرأة أجنبية أي امرأة لا تحل له - لما دخل على سيدنا عثمان رضي الله عنه نظر إليه وقال له :

(أيدخل عليّ أحدكم وفي عينيه أثر الزنا ؟!

فقال الرجل : أوَحْيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

---

[1] انظر تفسير ابن كثير للآية الكريمة

فقال سيدنا عثمان رضي الله عنه : لا ، ولكن قول حق وفراسة صدق)[1].

فقد رأى سيدنا عثمان رضي الله عنه بنور إيمانه رأى ظلمة الزنا التي ظهرت على عين ذلك الرجل الذي نظر إلى الحرام ، وقد قال صلى الله عليه وسلم:

[اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ ﷺ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾].[2]

وقد ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أن وضوء المؤمن يغسل خطاياه - أي الصغائر - التي صدرت من أعضائه وجوارحه ، فقد روى مسلم وغيره عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوِ الْمُؤْمِنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ][3].

وقد كان بعض الصالحين الأكابر رضي الله عنهم يرى آثار ظلمات الذنب وهي تمشي مع الماء يراها من المذنب حين يتوضأ، فيرى عكر الماء المتساقط من أعضائه .

ومن فضل الله تعالى على عباده أن حجبهم عن رؤية ذلك ، وإلا لوقعوا في بعضهم فضيحة وتشهيراً وذماً وقدحاً ، وإنما تكلم أهل الله تعالى عما أراهم الله تعالى من ذلك من أجل الوعظ والتذكير لا الفضيحة والتشهير ، كما نبه سيدنا عثمان رضي الله عنه الرجل ووعظه ونصحه بالتوبة إلى الله تعالى .

---

[1] انظر الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري ٢١٤ وفيض القدير للمُناوي ١١ ١٨٦

[2] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

[3] صحيح مسلم وموطأ الإمام مالك كلاهما في كتاب الطهارة

وقد أخبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زمرة أخرى من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب أيضاً ، ففي الحديث الذي رواه ابن مردويه ومحمد بن نصر فى الصلاة وابن أبي حاتم وغيرهم عن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فيقوم منادٍ فينادي:

أين الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء؟

فيقومون وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب .

ثم يعود فينادي : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟]

- أي أين قوّام الليل بعبادة الله تعالى؟ -

[فيقومون وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب .

ثم يعود فينادي : ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذِكر الله.

فيقومون وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يقوم سائر الناس فيحاسبون] [1].

وكل هؤلاء يدخلون الجنة بغير حساب بعد أن دخلها أولئك الذين أخبر عنهم صلى الله عليه وسلم وهم سبعون ألفاً ، لأنه جاء بنص الحديث: [هؤلاء أمّتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدَّامهم لا حساب عليهم ولا عذاب][2] الحديث كما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما .

[1] انظر الجامع الكبير للسيوطي

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق

وإن الله تعالى يُدخل المؤمنين الجنة على زُمَر، قال عز من قائل:﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾- أي جماعات بعد جماعات ، كل على حسب إيمانه ومقامه عند الله تعالى- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أي: والحال قد فُتحت أبوابها ، وقد فتحها الفاتح الأول ، وهو السيد الأعظم والحبيب الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كما بين ذلك صلى الله عليه وسلم: فقد جاء في صحيح مسلم وغيره عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ - صلى الله عليه وسلم - فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ] - أي بحقك أمرت - [لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ][1].

أما الكفار فإنهم لما سيقوا إلى جهنم فتحت أبوابها أمامهم بغتة وفجأة حتى تبهتهم بنيرانها وعذابها - نسأل الله العافية - وفي هذا قال سبحانه في الآيات قبلها : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أي فجأة .

أما أهل الجنة - جعلنا الله تعالى منهم بفضله وكرمه - فقد بدت لهم الجنة من بعيد وهم يمشون إليها ، ويرون خضارها ونضارها ، ويهب عليهم من نسيمها وريحها العبق ، مما يزيد في نشاطهم ونعيمهم وسكينة نفوسهم وأمانهم الذي أكرمهم الله تعالى به .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان ومسند الإمام أحمد ١١٩٤٨

المحاضرة السادسة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب الصراط جسر جهنم

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال :

[قال أناس : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

فقال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟

قالوا: لا يا رسول الله .

قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟

قالوا: لا يا رسول الله.

قال : فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول:

من كان يعبد شيئاً فليتبعه؛ فيتبع من كان يعبد الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة [1] التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم .

فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه؛ فيأتيهم الله في الصورة [2] التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم .

فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب جسر جهنم .

---

[1] أي غير الصِّفَة .
[2] أي الصفة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأكون أول من يجيز ، ودعاء الرسل يومئذ : "اللهم سلم سلم" ؛ وبه كلاليب مثل شوك السعدان ، أما رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .

قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عِظمها إلا الله؛ فتَخْطَف الناس بأعمالهم ، منهم الموبَق بعمله ، ومنهم المُخَرْدَلُ ثم ينجو؛ حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده ، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج؛ ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله ، أمر الملائكة أن يخرجوهم ، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء يقال له: ماء الحياة، فَيَنْبُتونَ نبات الحبة في حميل السَّيْل ؛ ويبقى رجل منهم مقبل بوجهه على النار ، فيقول : يا رب قد قشبني ريحها ، وأحرقني ذكاؤها ، فاصرف وجهي عن النار ؛ فلا يزال يدعو الله .

فيقول : لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره .

فيقول : لا وعزتك ، لا أسألك غيره ، فيصرف وجهه عن النار .

ثم يقول بعد ذلك : يا رب قرّبني إلى باب الجنة .

فيقول : أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ؟ ويلك ابن آدم ما أغدرك .

فلا يزال يدعو فيقول : لَعلّي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره .

فيقول : لا وعزتك ، لا أسألك غيره ، فيعطي الله من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره ، فيقربه إلى باب الجنة ، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : رب أدخلني الجنة .

ثم يقول: أوليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك.

فيقول : يا رب لا تجعلني أشقى خلقك ؛ فلا يزال يدعو حتى يضحك ، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها ، فإذا دخل فيها قيل له : تَمَنَّ مِن كذا ؛ فيتمنى ، ثم يقال له : تَمَنَّ من كذا ؛ فيتمنى حتى تنقطع به الأماني .

فيقول له : هذا لك ومثله معه] .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً .

قال عطاء : وأبو سعيد الخُدري رضي الله عنه جالس مع أبي هريرة رضي الله عنه لا يغيّر عليه شيئاً من حديثه ، حتى انتهى إلى قوله : [هذا لك ومثله معه] ؛ قال أبو سعيد رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [هذا لك وعشرة أمثاله]، قال أبو هريرة رضي الله عنه: حفظت:[مثله معه][1] .

وفي رواية للبخاري: [هل تضارون ؟][2] - بغير تشديد - من الضرر والأذى.

وفي رواية له أيضاً: [لا تَضامُّون ؟][3] - بتشديد الميم وضمها - من الضم والمزاحمة .

أما رواية: [لا تُضامُون ؟][4] بتخفيف الميم ، فهي من الضيم أي الظلم .

وفي رواية له أيضاً[5]: [هل تمارون ؟] من المِراء، يعني الشك والارتياب.

ولا تنافي ولا تعارض في معاني هذه الروايات ، إذ إنه ﷺ يبين أنه لا تظالم ولا تزاحم ولا ارتياب ولا التباس على المؤمنين في الجنة حين يتجلى عليهم رب العالمين بالرؤيا ، فكل منهم يرى ربه سبحانه متجلياً على أهل الجنة دون أن يصيبه ضرر في ذلك ، أو أنهم لا يتزاحمون على ذلك، أو أنهم لا يشككون في ذلك، فلا ضرر ولا مزاحمة ولا شك ولا التباس .

قوله ﷺ : [يجمع الله الناس] - وفي رواية [6] : [يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] - [فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه] أي من كان في الدنيا يعبد مع الله تعالى شيئاً فليتبع معبوده ، ثم تذهب بهم هذه المعبودات إلى جهنم ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق
[2] كما في صحيح البخاري كتاب التوحيد وانظر عمدة القاري ١٨ \ ١٧٢
[3] كما في صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة
[4] للبخاري أيضاً في صحيحه كتاب تفسير القرآن وانظر عمدة القاري ١٨ \ ١٧٢
[5] كما في صحيح البخاري كتاب الأذان.
[6] في كتاب الأذان.

فتتمثل لهم المعبودات التي عبدوها من دون الله تتمثل لهم بصور مثالية ويتبعونها إلى جهنم .

وجاء في رواية : [فينطلقون ، ويمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون ؛ فمنهم من ينطلق إلى الشمس ، ومنهم من ينطلق إلى القمر والأوثان من الحجارة وأشباه ما كانوا يعبدون] [1] يعني لا يدخل جهنمَ عينُ الشمس ولا عينُ القمر ، بل تُمثّل لهم بحيث يرونها أنها هي الشمس التي كانوا يعبدونها في الدنيا وكذلك القمر ، لأن الشمس والقمر وسائر الكواكب والمخلوقات هي تؤمن بالله تعالى ، وتسبِّح الله تعالى على الدوام ، وتسجد له سبحانه ، قال سبحانه: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**﴾.. الآية.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم : [وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها] أي وتبقى هذه الأمة التي لم تشرك مع الله أحداً ويبقى فيها الدخلاء المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، ولا بد عندئذ أن يميز الله تعالى المنافقين من المؤمنين ، فيجري الامتحان على عقائدهم الإيمانية ، وذلك بعد أن جرى عليهم الامتحان في أعمالهم الجسمانية ، وذلك لما أُمروا بالسجود لله تعالى ، قال سبحانه : ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ**﴾ فقد أخبر سبحانه بهذه الآية عن موقف امتحان المكلفين بالسجود يوم القيامة ؛ وذلك أنه سبحانه يكشف عن نور عظيم ، يتجلى به على أهل الموقف ويدعوهم إلى السجود له تعالى .

---

[1] طرف حديث ذكره الحافظ المنذري في الترغيب في كتاب البعث وأهوال يوم القيامة وقال : رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم وقال: صحيح الإسناد .اهـ .

كما روى البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول: [يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا] [١].

وفي رواية مسلم : [فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً [٢] إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ] [٣]

والكشف عن الساق الوارد في الآية الكريمة وفي الحديث الشريف يفسره ما رواه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال :

[عن نور عظيم فَيَخِرّون له سُجّداً] [٤] .

وبعد أن يمتحن الله تعالى هذه الأمة - بمن فيها من منافقين - بعد أن يمتحنهم في عقيدتهم الإيمانية القلبية يدعوهم إليه سبحانه أي إلى دار ضيافته دار السلام ، وهي جنته سبحانه وتعالى التي أعدها للمتقين ، ولا بد للوصول إليها من المرور على الصراط ، وهذا قوله ﷺ :

[فيُضرب الصراط بين ظهراني جهنم] [٥] .

---

[١] في صحيحه كتاب تفسير القرآن
[٢] أي خوفاً من الناس ونفاقاً
[٣] في صحيحه كتاب الإيمان
[٤] انظر الدر المنثور للحافظ السيوطي ١٠ \ ٨٠
[٥] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأذان

والصراط والسراط بمعنى واحد[1] وهو الطريق الواسع الذي يتسع للمارين عليه، هذا الصراط - أي الطريق - الذي ينصب بين ظهراني جهنم ، هو في حقيقته صورة مثالية للدين والشريعة الإلهية التي هدى الله تعالى الناس إليها على ألسنة الرسل على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، وأمرنا أن ندعوه سبحانه للتوفيق للعمل بها فقال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

والهداية في الآية هي هداية البيان والدلالة ، وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي بيّنّا له طريق الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ، وقال تعالى : ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي بينا له طريق الخير وطريق الشر .

أما هداية التوفيق التي أمرنا سبحانه أن ندعوه إليها فهي المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ*صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي وفِّقنا يا رب للسير على الصراط المستقيم ، وهو صراط الشريعة التي جاءنا بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووفِّقْنا للعمل بها كما وفَّقْتَ الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

ومن أراد أن يعرف كيف سيكون سيره على الصراط في الآخرة فلينظر الآن في نفسه وكيفية تمسكه بشريعة الله ودين الله جل وعلا.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

[ويضرب جسر جهنم ، فأكون أول من يجيز].

وفي رواية للبخاري أيضاً : [فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته] [2] .

---

[1] انظر لسان العرب مادة (سرط) ٧ \ ٣١٣١

[2] في صحيحه في كتاب الأذان.

ويقال في اللغة : جاز وأجاز الوادي إذا قطعه، جازه واجتازه بمعنى واحد ، أي جاوزه بمعنى قطعه[1] .

وجاء في رواية للحديث [2] أنه يقال للمؤمنين قبل أن يجوزوا الصراط :

[ارفعوا رؤوسكم ، فيرفعون رؤوسهم ، فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم [3] ، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين أيديهم ، ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ، ومنهم من يعطى مثل النخلة بيده ، ومنهم من يعطى أصغر من ذلك ، حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوره على إبهام قدمه ، يضيء مرة ويطفأ مرة ، فإذا أضاء قدّم قدمه ، وإذا طَفِئ قام] .

وأما الكافر فلا إيمان عنده لذا فلا نور له يضيء على الصراط ، ولذلك يهوي في جهنم.

وأما المنافق الذي يخادع الله تعالى في الدنيا ويظهر للمؤمنين أنه مؤمن ويبطن الكفر فإن كلمة (لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) التي قالها في الدنيا تضيء له على الصراط خطوة أو خطوات يسيرة ، ويظن في نفسه أنه سينجو بخداعه كما كان في الدنيا ، إلا أن الله تعالى يخادعه عقوبة على خداعه في الدنيا ، فيطفئ نوره ويظلم ما حوله ، فلا يستطيع السير على الصراط ، وينادي أهل الإيمان الذين يمشون أمامه، يناديهم أن يتمهلوا ليستنير بنورهم ، ويسير على سيرهم ، إلا أنه لا استعداد عنده ليستنير بنور المؤمنين ، لأنه كافر منافق أعمى القلب ، لا يمكنه أن يهتدي بنور غيره ، ولا يستطيع بخداعه وكذبه أن ينجو ، لأن الدار الآخرة دار تحق فيها الحقائق ، وتظهر فيها الدقائق ، وتبلى السرائر ، ولذلك وصفها سبحانه بقوله : ﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ .

---

[1] انظر لسان العرب ٥ \ ٣٢٦

[2] طرف حديث ذكره الحافظ المنذري في الترغيب في كتاب البعث وأهوال يوم القيامة وقال : رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم وقال: صحيح الإسناد .اهـ .

[3] أي أنهم يمشون على الصراط مستنيرين بنور إيمانهم وأعمالهم .

وقال سبحانه في بيان قوة أنوار المؤمنين على الصراط : ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أي ارجعوا إلى الدنيا واسعوا في تحصيل النور ، بأن تؤمنوا بالله تعالى حقاً ، وتعملوا صالحاً ، وأنى لهم ذلك ؟

وما هذا الجواب إلا من باب السخرية بهم والتهكم ، ثم ينتهي الأمر بهم إلى الدرك الأسفل من النار .

وقد أخبر سبحانه عن المؤمنين وهم يسيرون على الصراط أنهم يدْعون الله تعالى ويسألونه أن يُتْمِمَ عليهم نورهم ، حتى يدخلوا الجنة بسلام ، وأن لا يؤاخذهم على ذنوبهم وصغائرهم ، فإن الموقف موقف تدقيق وحساب ، والأمر يحتاج إلى مغفرة الله تعالى ورحمته ، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وأما سرعة المؤمنين في السير على الصراط فيكون ذلك على حسب قوة إيمانهم وصلاح أعمالهم ، فمنهم من يمشي كالبرق الخاطف في سرعته ، ومنهم كالريح العاصفة ، ومنهم كالطير السريع ، ومنهم من يمشي كشد الرجال ، ومنهم من يمشي زحفاً ، ومنهم من يوبَق بعمله أي يهلك بسبب سوء أعماله فتخطفه الكلاليب التي على حافتي الصراط ؛ فقد جاء في حديث رواه الإمام مسلم عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :[وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ ، قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟

قَالَ: أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ[1]، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: "رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ" ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا.

قَالَ: وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ، مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ] [2].

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم في بيان عظمة تلك الكلاليب أن الكلوب الواحد من هذه الكلاليب ليخطف قوماً مثل ربيعة ومُضَر ، ففي الحديث عَن عبيد بن عُمَيْر رَضِي الله عَنهُ عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ: [الصِّرَاط على جَهَنَّم مثل حرف السَّيْف، بجنبتيه الكلاليب والحسك، فيركبه النَّاس فيختطفون، وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ وَإِنَّهُ ليؤخذ بالكلوب الْوَاحِد أَكثر من ربيعَة وَمُضر] [3].

---

[1] وشدُّها:عَدْوُها البالغ وجَرْيُها . انظر شرح النووي صحيح الإمام مسلم ٣ \ ٧٢

[2] في صحيحه في كتاب الإيمان. وجاء في مرقاة المفاتيح ٣٥٥١/٨: مَكْدُوسٌ فِي النَّارِ أَيْ: جُمِعَتْ يَدَاهُ وَرِجْلَاهُ وَأُلْقِيَ فِيهَا.

[3] قال الحافظ المنذري في الترغيب في كتاب البعث وأهوال يوم القيامة: رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ مُرْسلاً، وموقوفاً على عبيد بن عُمَيْر أَيْضاً.

وما هذه الكلاليب إلا المحرّمات والشهوات التي نهى الله تعالى عنها في الدنيا ، فمن أصاب شيئاً منها في الدنيا ، ومات ولم يتب ، فقد عرض نفسه لأن تخطفه الكلاليب الممتدة من جهنم إلى حافتي الصراط .

وإن توبة من وقع في ظلم غيره أن يعيد إليه حقه إن كان الحق ماليّاً ، أو يطلب منه العفو والصفح إن كان الحق أدبياً خُلُقياً ، كالغيبة والنميمة والقدح والسب والشتم والسخرية وغير ذلك .

وأخطأ من ظن أنه إذا حج بيت الله تعالى فقد غفرت له سائر ذنوبه ومنها المظالم التي تتعلق بعباد الله تعالى ، إذ يقال له :

هل استفاد مَن ظلمتَه أو بهتَّه أو اغتبته أو شتمته ، هل استفاد من حجك شيئاً ؟

وهل عفا عنك وسامحك ؟

نعم إنه لا يعفو عنك إلا إذا أديت له حقه إن كان مالياً ، أو سألته العفو والصفح إن كان حقه عليك في الأعراض .

وإن من مات ولم يتب - ولأحد عنده مظلمة - فإنه سيأخذ من حسناته ، حتى إذا فنيت حسناته ولم يقْضِ ما عليه أُخِذ من سيئات هؤلاء الذين يطالبونه بحق وطرحت عليه ثم طرح في النار ، لأن التقاضي يوم القيامة بين العباد بالحسنات والسيئات لا بالدراهم والدنانير كما هو شأن الدنيا ،

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم:

[أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ.

فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ] [1].

[1] رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه في صحيحه في كتاب البر والصلة.

وإن الوقوع في أعراض الناس - مِن ذم وقدح وشتم وغير ذلك - أشد وقعاً وأثراً على نفس أحدهم من ذهاب شيء من ماله ، لأن مَن أكل شيئاً من مال غيره فقد يعفو عنه يوماً ما ، ويفوض أمره إلى الله تعالى ويعوضه الله تعالى، أما من اغتاب غيره وذمَّه وشتمه فقد طعن في ذاته وانتقص من كرامته فتراه يغضب ولا يعفو إلا بصعوبة .

وإن الإنسان في الدنيا إنما يمشي على صراط شريعة الله تعالى ، فليكن في سيره متبعاً الإمام الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، وليجتنب المحرمات والوقوع في الشهوات ، وليسأل ربه الثبات والسلامة ، حتى إذا صار في الآخرة ومشى على الصراط نال دعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [اللهم سلِّم سلِّم] أي سلِّم أتباعنا[1].

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [شِعَارُ الْمُؤْمِنِ عَلَى الصِّرَاطِ: " رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ"] [2] أي أنهم يؤمِّنون على دعاء الرسل لهم: [اللهم سلِّم سلِّم].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم : [ومنهم المُخَرْدَلُ ، ثم ينجو] أي يُصرع بسبب ذنوبه ثم يفيق وهكذا حتى يقطع الصراط[3] .

وقد جاء أن في الصراط قناطر [4]- أي محطات - تقف عندها العباد للسؤال والمحاسبة، فهناك قنطرة الصلاة وقنطرة الزكاة والصيام، وآخر القناطر قنطرة مظالم العباد ، ولا يقتحم أحد قنطرة على الصراط إلا إذا اقتحمها في الدنيا وقام بحقها .

---

[1] انظر كتاب فتح الباري ١١ \ ٤٥٢

[2] سنن الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

[3] انظر عمدة القاري ٢٣ \ ١٣٤

[4] ارجع إلى ما ذكره الشيخ الإمام في كتابه (الإيمان بعوالم الآخرة) في مبحث (قناطر الصراط) تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى .

فقد روى البخاري [1] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِم كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا].

وهذا بيان قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ فلا يتعب أحد من أهل الجنة في معرفة منزله ، ولا يمكن لأحد أن يدخل منزل غيره ، لأن لكل واحد من أهل الجنة منزلة ونعيماً على حسب إيمانه وأعماله .

قوله صلى الله عليه وسلم : [حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا] يدل على أنه لا يدخل الجنة إلا المهذَّب النقي الذي لا غبار عليه ولا شائبة تشوبه ، بل صفته الطهارة والصفاء والنقاء ، وقد قال صلى الله عليه وسلم:

[لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ] [2] أي حتى يتطهر من تلك الصفة التي تمنعه من دخول الجنة، ويتهذب ويطيب.

ونسأل الله تعالى أن يطهر قلوبنا وأنفسنا ويزكيها بالتزكية المحمدية التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. آمين

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] كما في كتاب الرقاق.

[2] رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في صحيحه في كتاب الإيمان.

المحاضرة السابعة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب التواضع

ثم روى بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن الله قال : مَن عادى لي ولياً فقد آذنتُه بالحرب ، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينّه ، ولئن استعاذني لأعيذنّه].اهـ

لقد روى الإمام البخاري رضي الله عنه هذا الحديث في كتاب الرقاق الذي ذكر فيه أحاديث ترقّق القلوب القاسية وتنبهها من غفلتها .

ويسمى هذا الحديث (حديث الأولياء) و(حديث التقرب إلى الله تعالى)، لأن فيه بيان طرق التقرب إلى الله تعالى ، وبيان مراتب التقرب من الله تعالى ..

وفي هذا الحديث القدسي يعلن الله تعالى فضل أوليائه وغيرته عليهم ونصرته لهم ، فمن هو ولي الله تعالى ؟

اعلم أن أولياء الله تعالى على مرتبتين:

فهناك الولاية العامة ، وهناك الولاية الخاصة .

فكل مؤمن تحقّق بالإيمان الكامل فهو ولي من أولياء الله جل وعلا ، وهذه هي الولاية العامة ، وهذا قوله تعالى :﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾

أي : أن هناك بين كل مؤمن وبين ربه محبة ومناصرة ، فالمؤمن ينصر دين الله ، والله ينصره وهكذا .

وهناك الولي الذي تقرّب إلى الله تعالى بالقُرُبات والنوافل ، وهو المراد من كلمة (الولي) عند إطلاقها ، وهذه هي الولاية الخاصة .

وكلمة (الولي) مأخوذة من الولاء وهي المحبة والنصرة ، فيقال : بين فلان وفلان ولاء : أي محبة، ويقال : بين فلان وفلان ولاء : أي نصرة.

وهي أيضاً تعني معنى القرب، مأخوذة من : الولى ، فيقال : بين فلان وفلان ولاء أي : قرب.

فالولي من تحقق بثلاثة أمور : محبة لله تعالى ونصرة لدين الله تعالى وتقرّب إلى الله تعالى .

وكلمة (ولي) على وزن (فعيل) ، ويصلح فيه أن يكون فاعلاً ومفعولاً كما هو في قواعد اللغة العربية .

فولي الله : أي : محب لله ومحبوب من الله تعالى، وولي الله : أي : ناصر لدين الله تعالى ومنصور من الله تعالى، وأول ذلك أن ينصر الله تعالى على نفسه فيتمسك بدينه كما قال تعالى :﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾.

و(ولي الله تعالى) بمعنى أنه متقرب إلى الله تعالى ، والكلمة مأخوذة من (الولى) كما تقول في اللغة : فلان يلي فلاناً ، أي : يقرب منه، فالولي إذاً محب ومحبوب، وناصر ومنصور، ومتقرب إلى الله تعالى ومقرَّب من الله تعالى .

والحديث المتقدم جاء في بيان معاني الولاية الخاصة .

وقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم الولاية العامة لجميع المؤمنين الصادقين ، والولاية الخاصة للمقربين إليه .

قال سبحانه في بيان الولاية العامة :

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾..

وقال جل وعلا في بيان الولاية الخاصة :

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ .

وقد افتتح سبحانه الآية بقوله : ﴿ أَلَآ ﴾ وهي للتنبيه حتى يلفت أفكار العقلاء إلى أمر عظيم ، وأن هؤلاء الأولياء لهم شأنهم الكبير عند الله تعالى .

وأما صفة أولياء الله تعالى فقال سبحانه : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي : آمنوا إيماناً صادقاً كاملاً .

وعندما يصف القرآن الكريم أناساً بالإيمان فيعني : الإيمان الكامل الصادق الجامع .

قوله تعالى : ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : فهم على تقوى الله تعالى حيث كانوا ومتى كانوا .

فقد جيء بكلمة ﴿كَانُواْ﴾ حتى يبين أن أكوانهم كلها في التقوى ، لا أنهم اتقوا الله في الجامع مثلاً ولما خرجوا إلى الشارع تفلّتوا من التقوى ، فصفة التقوى ملازمة للولي في جميع أحواله .

قوله تعالى : ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾

أما البشرى في الحياة الدنيا فقد بيّنها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سُئل عنها فقال :

[هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو تُرى له].[1]

فتأتيهم البشائر من الله تعالى عن طريق عالم المنام بالرؤيا الصادقة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

[ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة][2]

وما كان من النبوة فإنه لا يكذب ..

فرؤيا المؤمن في منامه هي رؤيا صادقة لها اعتبارها ، ويترتب عليها أحكام .

وقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم ما يدل على شأن الرؤيا الصادقة واعتبارها في شرع الله تعالى وذلك لما أخبر عن قصة يوسف عليه السلام، وأما الرؤيا المختلطة فهي أضغاث أحلام أو تلاعب شيطان، ولها أحكام وآداب يتحتم فعلها على من رآها [3].

ومهما رأى الإنسان في منامه من أمور فليتفاءل خيراً ، وليترك الوسواس جانباً وليكن تعبيره لها خيراً .

وقد تأتي البشائر من الله تعالى لأهل صفاء القلوب عن طريق الإلهامات القلبية الملكية من عالم الغيب .

وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

---

[1] المسند ٢٦٢٧٦ وسنن الترمذي كتاب الرؤيا

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التعبير

[3] انظر بحث آداب الرؤيا في آخر كتاب (الدعاء) لشيخنا الإمام رضي الله عنه

وأما البشائر في الآخرة فتبدأ من الموت ، فتأتيهم الملائكة وتبشّرهم بالأمان والجِنان ، وما أحوج الإنسان إلى البشائر في وقت الضيق والهمّ والغمّ !!

قوله تعالى :

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾

أي: وهذه من كلمات الله تعالى التي لا تتبدل ، فالأمر محكَم نافذ لا يتبدل.

وقوله تعالى في الحديث القدسي :

[من عادى لي ولياً] يعني المؤمن الكامل أهل الولاية الخاصة .

[فقد آذنتُه بالحرب] ويكون المعنى : من عادى مؤمناً كاملاً محباً لله تعالى ناصراً لدين الله متقرباً إلى الله بالتقوى، من عادى هذا الولي فقد عادى اللهَ تعالى ، ومن عادى الله تعالى أعلن الله عليه الحرب .

وقوله سبحانه: [آذنْتُه][1] أي أعلمته، يعني : فليعلم كل إنسان أن مَن كره أولياء الله تعالى أو أبغَضهم أو عاداهم فقد أبغض الله تعالى وعادى الله تعالى، وليعلم أن الله تعالى قد أَعلمه بالحرب ..

ومن أحب أولياء الله تعالى لأنهم مؤمنون، ولأنهم على تقوى لله تعالى ومحبة له فقد أحب الله تعالى ، لأن الله تعالى يحب أولياءه وينصرهم .

ولو أن الإنسان تفكر في قوله صلى الله عليه وسلم :

[آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار][2] لاهتدى إلى أن حب أولياء الله تعالى دليل على محبة الله جل وعلا، وبغضَ أولياء الله دليل على النفاق ومرض القلب وعدم محبة الله تعالى .

---

[1] ومنه الأذان : وهو الإعلام بدخول وقت الصلاة .. والآذن هو الذي يبلّغ غيره ما أريد منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: ناداهم وأعلَمَهم .

[2] صحيح البخاري كتاب الإيمان

فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الأنصار علامة على الإيمان الكامل الصحيح ، وذلك لأن الأنصار أحباب الله وأنصار الله ، نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن مَن أبغض أولياء الله تعالى أو عادى أحداً منهم فقد أعلَمَه الله بالحرب ، ومن حاربه الله خسر الدنيا والآخرة ، نسأل الله العافية .

وبعد أن ذكر سبحانه منزلة أوليائه عنده وكرامتهم عليه وغيرته عليهم ، ذكر بعد ذلك سبحانه طريق الولاية وهو الطريق الذي يجعل المؤمن - إن هو سار عليه - يجعله ولياً لله تعالى فيكون من الذين يحبهم الله تعالى وينصرهم ويدافع عنهم ، ويعادي ويحارب من عاداهم، فقال سبحانه في الحديث القدسي :

[وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه].

فلما كانت الولاية محبة لله وتقرباً منه ونصرة لدينه جل وعلا كان طريق التحقق بذلك أولاً هو التقرب إلى الله سبحانه بالفرائض ، فأول طريق القرب من الله تعالى هو القيام بما افترضه الله على عباده.

والفرائض التي فرضها الله تعالى على عباده المؤمنين كثيرة متعددة :

منها ما هو بين العبد وربه وأوّلها الصلاة والصيام والزكاة والحج، ومنها ما هو مع خلق الله تعالى كصلة الرحم والتزام ما أحلَّ اللهُ تعالى في البيع والشراء وسائر المعاملات ، وأداء الحقوق والواجبات ، إذ إنها فرائض وليست مستحبات .

ومن زعم أنه يحج بيت الله الحرام كل سنة ويغسل ما ارتكبه من ذنوب خلال سنته كلها، فيقال له : إن صحّ حجك وكان خالصاً لله تعالى - لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

[من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه[1]]

[1] صحيح البخاري كتاب الحج

إذا تحققت بذلك فإن الله تعالى يغفر ذنوبك التي بينك وبينه سبحانه،

أما حقوق العباد والمظالم فلا بد أن تؤدّى إلى أهلها ، أو أن يعفو صاحب الحق عن حقه، فلا تبرِّر أيها العاقل لنفسك ارتكاب المخالفات والوقوع في أعراض الناس ومظالم العباد بأن ذلك كله سيغفره الله لك في حجك !!

وتفكّر في قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة الكرام رضي الله عنهم :[أتدرون مَن المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا يا رسول الله مَن لا درهم له ولا متاع، قال صلى الله عليه وسلم: المفلس مِن أمتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته ، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيقعد ، فيقتصّ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا أُخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار] [1].

ومما تقدم يتبين لك أن أحب القربات إلى الله تعالى هو التقرب إليه سبحانه بأداء الفرائض كلها كالبنيان المرصوص المتكامل ، لا أن تؤدي فريضة وتهمل أخرى وهكذا..

وقوله تعالى في الحديث القدسي :

[وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه].

وفي هذا يذكر سبحانه مرتبة قُربِ النوافل ، وهي بَعدَ القيام بالفرائض على الوجه الأكمل .

والنوافل جمع (نافلة) وهي في لغة العرب تعني : الزيادة، فالفرض هو الأصل والأساس ، ثم تأتي النوافل كزيادة [2]على الفرائض ، ولا يرتقي إلى مقام قرب النوافل إلا مَن تحقق بمقام قرب الفرائض بأن قام بها وأتمّها، ثم راح يزيد في النوافل وأعطاها حقها حتى يقال : إنه عَبَدَ الله تعالى بالنوافل .

---

[1] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب وسنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع والرواية له

[2] وكل شيء زدتَه للآخَر يقال : أعطيتَه نافلة

وإن مقام قرب النوافل مقام كبير قلّ من يحصل عليه ، لأن كل مقام يتحقق به الإنسان فإنه يعطيه خصائص..، فمقام قرب الفرائض يجعل في صاحبه حباً لله تعالى ، بحيث إنه لو فاته شيء من الفرائض أو مُنع من أداء فرض فيجد من الحسرة والألم كأنه سُلِخ جلده ومزّقت عظامه؛ بسبب حبه الصادق لله تعالى وحبه لعبادة الله تعالى وولعه وتعشقه بها ، وكأن العبادة صارت جزءاً منه ، فإن فاته شيء منها فكأنما نقص شيء من جسمه .

ثم ينتقل المؤمن العابد إلى مقام قرب النوافل فيصير محبوباً بعد أن كان مُحِباً ، وهذا قوله سبحانه في الحديث القدسي :

[ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبَّه] .

أي : فصار محباً لله تعالى محبوباً من قِبَل الله تعالى .

واعلم أن المحبة ليست بالدعوى وإنما المحبة تحقّق ، ولها شواهد صدق تدل على ثبوتها عند من ادعى المحبة، ألا ترى أنك لما تحب ابنك تكرمه وتسأل عنه وتعتني به وتجيب طلباته ؟!.

ومن ادعى محبة غيره اشتاق لرؤيته، وسعى لزيارته والجلوس معه، وبَذَل جهده في إكرامه وفرح لفرحه وحزن لِما يحزنه وهكذا.. فإذا كان هذا كله فيما بين الخلق، فما بالك بمحبة الله رب العالمين؟!- ولله المثل الأعلى -

نعم إن محبة الله تعالى توجب على المحب أموراً يتحقق بها :

أولها: التحقق بمقام قرب الفرائض بأن يؤدي ما افترضه الله عليه على وجه تام غير منقوص .

ومن تحقق بذلك صار محباً لله تعالى صادقاً ، يرضى بما يرضي الله تعالى من أعمال وأقوال، وهذا هو الأساس الذي يُبنى عليه قرب النوافل .

وأهل النوافل على مراتب، وبذلك ينال المؤمن العابد محبة الله الخاصة له - وإن كان المؤمنون كلهم محبوبين عند الله تعالى بالمحبة العامة .

ومَن نال مقام قرب النوافل ونال محبة الله الخاصة له فلا بد له أن يعطى خصائص هذا المقام، وهذا قوله تعالى في الحديث القدسي المتقدم : [فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ..] .

وقد يزعم عابد أنه بلغ مقام قرب النوافل وذلك حسب الظاهر أنه يؤدي فرائضه كاملة ويزيد عليها بالنوافل كقيام الليل مثلاً وصلاة السنن وصيام أيام غير رمضان وهكذا فلِمَ لمْ تظهر عليه خصائص وآثار مقام قرب النوافل وهي قوله جل وعلا في الحديث القدسي : [كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به] ؟

فيقال : إن هذا يعني أن النوافل التي تقوم بها ليست زيادة على فرائضك، بل هي تجبر نقص الفرائض التي تؤديها، وقد يكون هذا النقص ليس في الكَمّ والعدد ولكن في الكيف، فهل أنت في صلاتك حاضر بقلبك مع الله تعالى خاشع له؟

وهل تؤدي صلواتك بآدابها وسننها على الوجه الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وهكذا سائر عباداتك وقرباتك فتأتي النوافل لتجبر هذا النقص في الفرائض، ولا يسمى أحَدٌ:(صاحبَ نوافل) إلا إذا كانت فرائضه كاملة تامة لا تحتاج إلى جبر وتكميل .

وقد أشار إلى هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث :

[إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟

فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ][1].

[1] سنن الترمذي والنسائي كلاهما في كتاب الصلاة

ومن جهة أُخرى فإن النقص في الفرائض قد يكون في تخلُّلِها شوائب الرياء، وعدم الصدق والإخلاص فيها مع الله تعالى فتأتي النوافل لتجبر نقص الفرائض وتكملها .

ومن هذا يعلم العاقل مدى حاجته إلى النوافل وعدم تركها ولو أن نوافله جاءت يوم القيامة وسدت نقص فرائضه لكان ذلك فضلاً كبيراً من الله تعالى عليه .

وإن من كَمُل له مقام الفرائض أي: أدى الفرائض كلها تامة فإن الجنة مضمونة له بدليل ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم لما سأله الأعرابي عن أركان الإسلام ثم قال للنبي ﷺ : [وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لَا أَتَطَوَّعُ شَيْئًا وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ][1] .

وإن أصحاب مقام قرب الفرائض هم المقتصدون، وهم الأبرار، وهم أصحاب اليمين، وقد وصفهم الله تعالى بهذه الصفات في القرآن الكريم.

والأبرار جمع بَرّ ، وهو الذي جمع وتحقق بأنواع البِرّ الإيماني كلها وهي الشعب الإيمانية المتنوعة، وذلك لأن البِرّ هو الخير الكثير المتنوع، ولما كان الإيمان لا يتأتى منه إلا الخير فقد يطلق عليه الخير كما في الحديث:

[إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ][2] ..... الحديث

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الصوم .
وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جوامع العلوم والحكم ٢٣ \ ٦ :
(ومراد الأعرابي أنَّه لا يزيدُ على الصلاة المكتوبة ، والزكاة المفروضة ، وصيام رمضان ، وحجِّ البيت شيئاً من التطوُّع ، ليس مرادُه أنَّه لا يعمل بشيءٍ من شرائعِ الإسلام وواجباته غير ذلك ، وهذه الأحاديثُ لم يذكر فيها اجتناب المحرَّمات ؛ لأنَّ السائل إنَّما سأل عَنِ الأعمال التي يدخل بها عامِلُها الجنَّة) .

[2] انظر مسند أبي يعلى الموصلي واللفظ له والسنن الكبرى للبيهقي

وقوله ﷺ : [مِنْ خَيْرٍ] أي : من إيمان ، بدليل ما جاء في رواية :

[إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، يَقُولُ اللَّهُ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ][1] ... الحديث

فالمقتصِد والبَرّ هو الذي تحقق بمقام قرب الفرائض فأتى بها كاملة غير ناقصة .

وقال تعالى في بيان أن الإيمان هو البر بأنواعه: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ الآية.

وأما من كَمُلت له فرائضه وزاد عليها بالنوافل فقد التحق بالمقربين السابقين كما قال تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

وهم أهل مقام قرب النوافل .

وقد ذكر سبحانه أصناف عباده المؤمنين من حيث موقفهم من القربات والطاعات فقال تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ﴾ - وهم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ .

اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم أن تلحقنا بهم يا رب العالمين. آمين

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الإيمان

ولما سأل معاذ بن جبل رضي الله عنه سيدَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ.

قَالَ ﷺ : لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ] - وهذا مقام قرب الفرائض

[ثُمَّ قَالَ ﷺ : أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ ؟] -وينبهه ﷺ بذلك إلى مقام قرب النوافل- [الصَّوْمُ جُنَّةٌ] - أي : وقاية للصائم عن المعاصي- [وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ][1]....الحديث

فالخيرات الواردة في قوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾

بيَّنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله لمعاذ رضي الله عنه: [أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟] .

وقولُه سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ - أي : بتوفيق الله وعونه لا بمهارة العبد وفطانته، فالفضل أولاً وآخراً لله تعالى .

وانظر في قوله جل وعلا : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وقوله عز من قائل : ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ﴾ فالفضل أولاً مِن الله تعالى عليهم بالمحبة والرضا، وكان هذا سبباً يحملهم على فعل ما يقرِّبهم إلى الله تعالى ، ويحبونه جل وعلا ، ويكونون راضين عن قضائه وأحكامه وشرعه سبحانه ، مطمئنة نفوسهم لذلك، فلما تحققوا بذلك نالوا محبة الله الخاصة لهم ورضا الله عنهم .

[1] انظر سنن الترمذي كتاب الإيمان واللفظ له وسنن ابن ماجه كتاب الفتن

وقوله تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

يعني : السابقون غيرهم في الدنيا بفعل النوافل هم السابقون غيرهم إلى المراتب العالية وإلى جنة رب العالمين، وأولئك هم المقربون قرباً خاصاً، لا غيرهم من أهل الدعوى .

واعلم أن مقام المقربين في نعيم الجنة أعظم من مقام الأبرار الذين هم دونهم في الرتبة والفضل والمقام، وقد ذكر ذلك سبحانه في عدة مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ - وهي جمع أريكة يعني السرير ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ - أي ينظرون إلى نضار الجنة ونعيمها وإلى كل ما يتمتع به الإنسان بنظره إليه .

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ - أي : فالناظر إليهم يرى في وجوههم أثر النعيم والرفاهية .

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ - أي من خمرة الجنة التي تعطي شاربها قوة وصحواً ونشاطاً - بخلاف خمرة الدنيا- وعلى كل إناء اسم صاحبه قد ختم عليه وهو مختوم بمسك الجنة .

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ - أي : من أراد المنافسة وكانت همته للمنافسة قوية فليبذل النفْس والنفيس لينال ذلك النعيم .

وأما بذل النفس والنفيس من أجل حطام الدنيا وأموالها المتروكة الفانية فهذا ليس من صفة العقلاء أولي الألباب .

والمنافسة هي بذل النفس والنفيس، فنفس الإنسان كريمة عزيزة على صاحبها، وعنده من النفيس ما وهبه الله له كالسمع والبصر والقوة والفكر والنشاط .

وإن شأن العاقل الفطن أن يبذل ما عنده من نفس ونفيس فيما هو ينفعه في المآل وهو ما بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي : يُمزج الرحيق المختوم -الذي يقدّم للأبرار- يمزج بشيء من عين التسنيم التي تتسنم من جانب العرش، وهذه التسنيم هي عين يشرب بها المقربون صرفة خالصة دون مزج وذلك لقوة استعدادهم وفضلهم .

وقوله تعالى : ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ فيه تضمين لمعنى فعل آخر أي : يشرب منها ويرتوي بها تمام الري، لا أن أحدهم يشرب ولا يرتوي ، بل يشرب حتى يرتوي ويمتلئ بها .

واعلم أن لكل طعام ولكل شراب في الجنة خصائص وآثاراً تظهر على الآكل أو الشارب كما أن هذا أمر مشهود معلوم في مآكل الدنيا ومشاربها، فلكل طعام خصائصه وآثاره ومنافعه للجسم وكذا لكل شراب، ولا يستغني الإنسان عنها ليتوازن غذاؤه ويصح جسمه .

أما خصائص الأطعمة والأشربة في الجنة فهي تُكسب الآكل أو الشارب العلوم والمعارف الإلهية، ويجدون فيها لذة ونعيماً في أرواحهم ومداركهم كلها، وهي تُعدهم وتُمدهم لتلقي الفيوضات الإلهية عليهم بالأنوار والأسرار وما هنالك من المشاهدات والتجليات .

وليست حياة أجسام أهل الجنة متوقفة على الأكل والشرب كما هو حال أهل الدنيا ، بل هم يأكلون ويشربون على سبيل التلذذ والنعيم والترقي الدائم المستمر إذ إنهم لما دخلوا الجنة قيل لهم ما جاء في الحديث الشريف :

[إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾][1]

وقد أكرم الله تعالى المقرَّبين -وهم الذين سبقوا غيرهم بالنوافل- أكرمهم بخوارق العادات - العادات التي اعتاد عليها غيرهم - وتسمى هذه الخوارق (كرامات) أي : أموراً يكرمهم الله تعالى بها فتخرق لهم العادات المألوفة، وهذا معنى قوله تعالى في الحديث القدسي المتقدم: [فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به ....] الحديث ، أي : يعطيه الله تعالى قوة في سمعه، وقوة في بصره، وقوة في مداركه، فيسمع ما لا يسمع غيره، ويرى ما لا يرى غيره وهكذا .

فمن ذلك ما كشف الله تعالى لسيد التابعين في زمانه سعيد بن المسيِّب رحمه الله تعالى ورضي عنه كشف له عن سماع الأذان من قبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أيام الحَرّة لما التزم المسجد النبوي فكان يعرف وقت الصلاة بأذان يسمعه من ضريح رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

وقوله جل وعلا في الحديث القدسي:

[ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه] .

أي يعطيه الله تعالى سؤاله ولو كان الأمر غير معتاد عند غيره.

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

[2] جاء في مقدمة سنن الدارمي أنه لما كان أيام الحرّة - أي: أيام فتنة يزيد - لم يُؤَذَّن في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ولم يُقَم - أي: لم يقم فيه الصلاة - ، ولم يبرح سعيد بن المسيب رضي الله عنه من المسجد ، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بِهَمْهَمَة يسمعها من قبر النبي صلى الله عليه وسلم.

ولما أسر المشركون خبيب بن عدي رضي الله عنه - وهو من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم- أسَروه ليقتلوه وأوثقوه ومنعوا عنه الطعام والشراب فوُجِدَ يوماً يأكل من قطف عنب في يده، وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة من ثمر[1].

ومرَدُّ ذلك إلى قوله تعالى في الحديث القدسي المتقدم: [ولئن سألني لأعطينه].

ولا ترتَبْ في ذلك أو تشكِّك في فهمه فإن الذي قدر على إخراج العنب من كرمه لهو قادر على أن يخلقه متى شاء وكيف شاء جل وعلا ، والأمر كله لله سبحانه .

وقال التابعي الجليل إبراهيم التيمي[2] - وهو عالم كبير محدّث ورع تقي زاهد - قال رضي الله عنه : (مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا)[3] وهذا لشدة تواضعه وورعه.

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير

[2] هو سيدي إبراهيم بن يزيد التيمي الإمام القدوة الفقيه عابد الكوفة، وكان أبوه يزيد من أئمة الكوفة أيضاً.
كان شاباً صالحاً قانتاً لله تعالى، عالماً فقيهاً كبير القدر واعظاً ، توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة أربع وتسعين للهجرة النبوية الشريفة ولم يبلغ أربعين سنة.
انظر سير أعلام النبلاء ٥ \ ٦٠

[3] انظر صحيح البخاري كتاب الإيمان ، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ١ \ ٧٦ :
يروى (مكذَّباً) بفتح الذال، يعني إبراهيم بذلك: خشيت أن يكذبني من رأى عملي مخالفاً لقولي فيقول: لو كنت صادقاً فعلت خلاف ما تقول ، وإنما قال ذلك لأنه كان يعظ الناس - أي: فكان يخاف أن يكون واعظاً وليس متعظاً بما يقول.
ويروى بكسر الذال وهي رواية الأكثر (مكذِّباً) .
ومعناه: أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل، وقد ذمّ الله تعالى من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصّر في العمل فقال سبحانه: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ قال: فخشي أن يكون مكذّباً أي: مشابهاً للمكذبين. اهـ.

وقد ضاق الأمر على عياله يوماً وطلبوا منه أن يأتيهم بالبر - أي الحنطة - وأعطوه كيساً ليخرج ويشتري به وليس معه درهم ، فمر في طريقه على أرض فيها رمل أحمر فملأ الكيس رملاً منها وقال في نفسه : (أضعه جانب الباب ويخيل إلى أهلي أنه بر فربما أخَّروا خبزه إلى اليوم التالي) .

فوضع الكيس ومضى فجاءت زوجته وفتحت الكيس فرأت فيه براً دقيقاً منخولاً جاهزاً للعجين والخبز فهيأت الخبز فلما عاد إبراهيم بعد العشاء رأى الخبز فسألهم فقالت له زوجته: هذا من الدقيق الذي أتيت به أنت ![1]

ولما هَرب الحسن البصري[2] رحمه الله تعالى ورضي عنه من الحَجّاج دخل إلى بيت حبيب ابن محمد[3] رحمه الله تعالى ورضي عنه فقال له حبيب: يا أبا سعيد: أليس بينك وبين ربك ما تدعوه به فيسترك من هؤلاء؟ - أي: بحيث لا يرونك - ادخل البيت.

فدخل ودخل الشُّرَط على إثْرِه - ليقبضوا عليه - فلم يروه فَذُكر ذلك للحجاج فقال: بل كان في البيت إلاّ أَنَّ الله تعالى طمس على أعينهم فلم يروه[4].

فمردُّ ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي المتقدم:[ولئن استعاذني لأعيذنه] حتى يئس الحجاج منه وتركه .

---

[1] جاء في كتاب إكمال تهذيب الكمال ١ \ ٣١٢ :
وقال الأعمش : خرج إبراهيم -رحمه الله تعالى ورضي عنه - يمتار فلم يقدر على الطعام، فرأى سهلة حمراء فأخذها ثم رجع إلى أهله، فقالوا: ما هذا؟ قال: هذه حنطة حمراء. فكان إذا زرع منها شيئاً خرج سنبله من أصله إلى فرعه حباً متراكباً.

[2] هُوَ سيدي الحَسَنُ بنُ أَبِي الحَسَنِ يَسَارٍ، أَبُو سَعِيْدٍ، كان جَامِعاً، عَالِماً، رَفِيْعاً، فَقِيْهاً، ثِقَةً، حُجَّةً، مَأْمُوْناً، عَابِداً، نَاسِكاً، كَثِيْرَ العِلْمِ، فَصِيْحاً، مَلِيْحَ الصُّوْرَةِ، بَهِيّاً، وَكَانَ مِنَ الشُّجْعَانِ المَوْصُوْفِيْنَ. اهـ انظر سير أعلام النبلاء ٤ \ ٥٦٥

[3] هو سيدي حبيب بن محمد العجمي، أبو محمد البصري، أحد الزهاد المشهورين الموصوفين بالزهد والورع والكرامات واستجابة الدعاء. انظر تهذيب الكمال ٥ \ ٣٨٩

[4] انظر (جامع العلوم والحكم) للحافظ ابن رجب الحنبلي ٢٠ \ ١٧

ومن ذلك أيضاً ما جرى لأبي مسلم الخولاني رضي الله عنه لما أراد الأسود العنسي أن يحرقه بالنار فلم تضره [1].

وهكذا يكرم الله تعالى أحبابه الصادقين بمكرمات وخوارق عادات حسب ما يقتضيه الحال الذي هم فيه .

ولقد كان أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل كرامات كثيرة واسعة أكرمهم الله تعالى بها بسبب اتباعهم الصادق لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ إن كل كرامة لولي هي معجزة لنبيّه تدل على صدقه، لأن الولي ما نالها إلا باتباعه لنبيّه.

ولم يكن أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتظاهرون بالكرامات وخوارق العادات، بل كانوا يؤثرون الخفاء وعدم الظهور خوفاً من شوائب الرياء والسمعة، وقد شهد لهم سبحانه بالصدق والإخلاص، وأجرى على أيديهم خوارق عادات كثيرة، وأكرمهم بمكرمات عديدة حسب ما يقتضيه الحال، قال تعالى : ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ .

وقال جل وعز: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتِّباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأعمال والأخلاق والآداب .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين .

---

[1] انظر تفاصيل ذلك في كتاب : (التقرب إلى الله تعالى) لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه في مبحث : (ذِكر حادثة سيدنا عبد الله بن ثوب مع الأسود العنسي الكذاب) ومبحث (ذِكر الدليل على ثبوت الكرامات لأولياء الله تعالى من الكتاب والسنة وبيان جملة منها).

المحاضرة الثامنة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد :

روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

[كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال :

يا غلام إني أعلّمك كلمات :

احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف][1].

وفي رواية غير الترمذي :

[احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفَرَجَ مع الكرب، وأن مع العسر يسراً][2].اهـ

ذكر الإمام النووي رضي الله عنه هذا الحديث في باب المراقبة وهو الباب الذي عقده روضة من رياض الصالحين .

---

[1] رواه الترمذي في سننه كتاب صفة القيامة والرقائق والورع وقال : حديث حسن صحيح

[2] انظر مستدرك الحاكم والمعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي

وقد تقدم الكلام على بعض معاني المراقبة وهي :

ملاحظة القلب لاطلاع الرب سبحانه عليه ، وهي توجب اليقين الصادق بأن الله تعالى مطّلع على العبد ، ويراه في جميع حركاته وسكناته وسائر أفعاله.

وقد أخبر سبحانه أنه الرقيب على عباده فقال جل وعلا :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ وأخبر جل وعلا أنه الشاهد على خلقه، وهو معهم أينما كانوا، ولا يخفى عليه شيء منهم فقال عز من قائل:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾.

وقال تبارك وتعالى :﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾.

وقال جل جلاله:﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾.

فهو سبحانه يخبر عبده يوم القيامة بما عمل في الدنيا ، عن علم منه سبحانه وشهود منه جل وعلا .

واليقين هو العلم الجازم الذي لا يُشكّ فيه أبداً، وقد سمي الموت بـ (اليقين) لأنه ما من أحد يشكّ فيه ، وفي هذا يقول سبحانه :

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ .

وقال سبحانه في الإخبار عن المجرمين :

﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ * وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾ أي : الموت.

ولما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه قال فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[أمّا عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه][1] ... الحديث،

أي : جاءه الموت.

فكما لا يشك أحد أو يوسوس في وجود الموت ، بل إن كل إنسان على يقين من وجود الموت ، فكذلك - بل على وجه أعلى وأكمل - يجب أن يكون على يقين أن الله تعالى مطّلع عليه ويراه ، لأنه هو سبحانه أخبر بذلك كما تقدّم في الآيات الكريمة .

وإن مَن تحقّق بمراقبة الله تعالى حُفظ من ارتكاب المناهي والمحرّمات ،

ومن غفل عن مراقبة الله تعالى وقع في المناهي والمحرمات .

وفي الحديث المتقدم بيَّن سيدنا رسول الله لابن عباس رضي الله عنهما - بل بيّن لكل واحد من أمته صلى الله عليه وسلم - : أن الله تعالى هو الرقيب على عباده ، وهو معهم أينما كانوا ، فعليهم أن يكونوا على مراقبة لله تعالى في جميع حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم .

ولما أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بالكلمات الجامعة في الحديث المتقدم كان رضي الله عنه ابن عشر سنوات ، وقد أردفه النبي صلى الله عليه وسلم خلفه على الدابة ، ويدل ذلك على جواز أن يركب الدابة اثنان إذا كانت الدابة قوية لا بأس بها .

قوله صلى الله عليه وسلم : [يا غلام] - مع أن ابن عباس رضي الله عنهما كان قريباً منه صلى الله عليه وسلم ولا تأتي (يا) إلا لنداء البعيد ، أما مناداة القريب فبالهمزة كقولك :(أغلام)- نعم لقد ناداه صلى الله عليه وسلم [يا غلام] حتى يحمله على الانتباه، ويلفت فكره وقلبه لِما سيوصيه به صلى الله عليه وسلم .

---

[1] المسند ٢٦١٨٦ وأصله في صحيح البخاري كتاب الجنائز

ثم قال له صلى الله عليه وسلم :[إني أعلّمك كلمات]

أي كلمات جامعة نافعة في الدين والدنيا والآخرة ، وبذلك صار ابن عباس رضي الله عنهما متوجهاً بكلّيته إلى سيدنا رسول الله ﷺ مستعداً لتلقي ما سيُمليه عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله صلى الله عليه وسلم :

[احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك]

وقد أراد صلى الله عليه وسلم بالكلمات جملاً كما هو معروف في لغة العرب

ولبيان معنى قوله ﷺ: [احفظ الله يحفظك] لا بد من الرجوع إلى ما جاء في الكتاب والسنة لتوضيح ذلك :

لقد جاء في الآيات القرآنية أن هناك حفظاً وهناك نسياناً ، فمن نسي اللهَ تعالى نسيه الله عز وجل، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾

وقال جل جلاله :﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ أي : من ترك ذِكر الله تعالى ودين الله تعالى تركه الله تعالى من رحمته ، فالنسيان المنسوب إلى الله تعالى هو الترك ، وليس نسيان العلم ، فلا يغيب شيء عنه سبحانه ، كما قال تعالى مخبراً عن سيدنا موسى عليه السلام قوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

فقوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله يحفظك] أي : كن على تذكّر ومراقبة لله دائماً، وعلى ذِكر له سبحانه، واحفظ الله أيضاً بأن تؤدي ما أمرك الله به من واجبات كما قال تعالى:﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾.

وقال تعالى :﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي : لا يتعدّون ما حرّم الله تعالى،

وهناك حفظ السمع والبصر والجوارح عن معصية الله تعالى، وحفظ الفرج واللسان وهكذا.. كما قال تعالى :﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه:[ألا أخبرك بمِلاك[1] ذلك كله] ؟

- وذلك بعد أن بيّن له أبواب الخيرات المقربة إلى الله تعالى -

[قال: قلت: بلى يا نبي الله ، فأخذ صلى الله عليه وسلم بلسانه وقال : كُفّ عليك هذا][2] .

فقوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله] كلمة جامعة لمعان كبيرة منها:

احفظ الله قلباً فلا تنسه ولا تغفل عنه فيشتغل قلبك بغيره سبحانه من أموال الدنيا وحطامها، واحفظ الله قولاً فلا تنس ذِكره سبحانه ، بل اجعل لسانك رطباً من ذِكر الله جل وعلا، واحفظ الله عملاً بأداء ما أوجبه عليك تبارك وتعالى، والانتهاء عما حرّمه سبحانه وهكذا ...

وعلى قدر حفظ العبدِ اللهَ تعالى يحفظه هو سبحانه مما يضره في الدنيا والآخرة ، فيحفظ عليه إيمانه ويثبّته عليه ، وأما من نسي الله تعالى وأعرض عنه فيتركه سبحانه كما قال جل وعز: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ والعياذ بالله تعالى .

---

[1] قال في تحفة الأحوذي٣٠٥/٧: الْمِلَاكُ مَا بِهِ إِحْكَامُ الشَّيْءِ وَتَقْوِيَتُهُ، وَأَهْلُ اللُّغَةِ يَكْسِرُونَ الْمِيمَ وَيَفْتَحُونَهَا، وَالرِّوَايَةُ بِالْكَسْرِ.

[2] المسند ٢١٠٠٨ وسنن الترمذي كتاب الإيمان

واعلم أنه لا بد لتثبيت الإيمان في القلب وزيادته، لا بد من تعاطي أسباب ذلك وهي سماع الموعظة والتذكير بآيات الله تعالى وأيامه ، وحضور مجالس العلم النافع ، وهذا ما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم ، حتى قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم :

[نكون عند رسول الله ﷺ يُذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين] [1]

أي : يزداد إيمانهم وتسمو قلوبهم حتى تنكشف عنهم الحجب ، ويصيروا في مقام المشاهدة لقضايا الإيمان الغيبية .

فمن زعم أن مجالس الوعظ والتذكير وسماع آيات الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم لا تنفع فقد خالف ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، وأهمل المواعظ التي جاءت عن سيدنا رسول الله ﷺ.

قوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله يحفظك] أي : يحفظك في الدنيا ويحفظك في الآخرة التي يُعدّ عالم القبر أول برازخها .

وكم يحتاج الإنسان إلى من يحفظه ويؤانسه ويبشره في وقت خرج فيه من عالم الدنيا ، وترك أهله وأولاده وأصحابه حيث شيّعوه إلى قبره ثم ودّعوه وانصرفوا !

فلا يحفظ الإنسان من وحشة القبر إلا رب العالمين جل وعلا، ولا يحفظ الإنسان من أهوال الحشر وكربات الموقف وشدائده إلا رب العالمين، فمن حفظ الله في الدنيا حفظه الله تعالى في جميع العوالم التي سينتقل إليها ، ويحفظه من خطر المرور على الصراط حتى ينتهي به الأمر إلى الجنة التي هي دار السلام، وقد قال سبحانه :

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ .

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب التوبة عن حنظلة الأسيدي رضي الله عنه

قوله تعالى :﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : قُرِّبت منهم .

ومتى يكون هذا التقريب ؟

نعم في كل العوالم ، ففي عالم الدنيا تكون الجنة مشهودة في قلوب المتقين ، وأرواحهم تحوم حولها - وإن لم ترها أعينهم - ، ويجدون رَوحها وريحانها، وهذا على حسب مراتب أهل التقوى، فهناك التقوى من الكبائر، وهناك التقوى من الصغائر، وهناك تقوى المباحات، وهناك التقوى عما سوى الله تعالى، ويكون ذلك بمراقبته سبحانه وترك ما سواه جل وعلا.

وإذا صار أهل التقوى في البرزخ قرّب الله إليهم الجنة أيضاً ، فيجدون من رَوحها ونعيمها ما يجعلهم في أحسن حال وأطيب مقام .

وكذلك عندما يصير الناس في عالم الحشر فإن الله تعالى يقرّب الجنة من المتقين ينظرون إليها بأعينهم ، وقلوبهم تواقة لدخولها فيقولون :

(قريباً ندخلها) ، وإن من قارب الشيء أخذ حكمه .

ألا ترى إلى المسافر- لما يرجع من سفره ويقرب من بلد إقامته - تراه ينسى تعبه ويزول عناؤه ، لأنه أشرف على الوصول إلى بلده ولقاء أهله وأحبابه ؟ !

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ -أي: يقال لأهل التقوى:

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي : من نعيم الجنة وما فيها .

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ أي لكل رجّاع إلى الله تعالى حفيظ .

ومن هذا الحفيظ ؟

قال تعالى :﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾

أي : خشي الله بقلبه لا بظاهر بدنه فقط ، ويكون معنى الغيب في الآية : (القلب) ، ومَن خشي قلبُه من الله تعالى خشيت جوارحه وظهر أثر ذلك عليه .

أو أن معنى قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي : خشي الله تعالى وإن لم يَرَهُ بعيني بصره.

وإن الإنسان لا يرى ربه في الدنيا ببصره ، ولكن يشهده بقلبه ويُثْبته بعقله، ولا يرتاب في وجوده ووحدانيته سبحانه ، فآياته جل جلاله ظاهرة وبيّنة في كل نفْس إنسان، وفي الأطراف الآفاقية .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال تعالى : ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ - آيات أيضاً- ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ وفي هذا تحريض على التبصر والتعقل في تلك الآيات النفسية والكونية.

واعلم أنه لما تجلى رب العالمين جل وعلا لجبل الطور ليبيّن لسيدنا موسى أنه لا يمكن لأحد أن يراه بعيني بصره في عالم الدنيا اندكّ الجبل وذاب وتلاشى، قال جل وعلا: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي أُغمي عليه، ولولا الروح الإنسانية الموسوية التي قام بها جسم موسى عليه السلام لذاب جسمه أيضاً وتلاشى، وهذا يدلّك على أن هناك رجالاً أقوى من الجبال .

ولقد كان التجلي الإلهي على الجبل جزئياً يسيراً [1]ولم يثبت له موسى عليه السلام ، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فتجلى الله عليه تجلياً مُطْلقاً على سدرة المنتهى - التي هي عالم كبير محيط بالسماء السابعة- وهذا قوله تعالى :

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾.

جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله : (يغشاها نور الخلّاق سبحانه) .

وقال الحسن رضي الله عنه : (غشيها نور رب العالمين فاستنارت) .

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

(غشيها رب العزة عز وجل) [2]

ومع ذلك فقد ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك التجلي ، قال تعالى :﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾.

فالإنسان في عالم الدنيا لا يمكنه أن يرى ربه جل جلاله بعيني بصره لضعف نشأة الإنسان الدنيوية ، لا لأنه سبحانه محجوب ، إذ كيف تحجبه مخلوقاته ؟

فلا سماء تحجبه سبحانه ولا أرض ولا جبل ولا جسم ، وإنما السبب ضعف النشأة الدنيوية لهذه المخلوقات وعدم لياقتها وعدم استعدادها لرؤية رب العالمين في عالم الدنيا المتغير الفاني .

---

[1] روى الترمذي في سننه عن سليمان بن حرب قال : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال حماد : هكذا ، وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى ، قال : فساخ الجبل ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ .

[2] انظر تفسير الألوسي والقرطبي والبغوي للآية الكريمة

ولما يصير الإنسان في عالم الجنة ينشئه الله فيها نشأة أبدية قوية ، ولا موانع نفسية تحجبه كالذنوب والظلمات والشهوات الدنيّة ، هناك عندئذ يصير أهلاً لرؤية رب العالمين جل وعلا .

واعلم أن أول لقاء للمؤمن بربه جل وعلا يكون بعد الموت مباشرة ، فمن كان على درجة عالية من الإيمان ، ولم تكن هناك ذنوب تحجبه وتمنعه من رؤية الله تعالى فإنه يرى ربه تبارك وتعالى ، كما هو عليه الصديقون والشهداء رضي الله عنهم.

وقد أخبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصحابي الجليل عبد الله بن حرام رضي الله عنه لمّا استشهد في غزوة أحد أخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم أنه نظر إلى ربه كفاحاً [1]- أي : من دون حجاب .

وأما من مات ولم يتب من ذنوب كان قد اقترفها في حياته الدنيا ، فإن تلك الذنوب تحجبه عن رؤية الله تعالى ، فتكون الذنوب بمنزلة السحب التي تحجب عين الإنسان عن رؤية الشمس ، لكن الشمس طالعة مشرقة لا يشك في ذلك الناظر إليها .

قوله صلى الله عليه وسلم: [احفظ الله تجده تجاهك]

- وفي رواية : [أمامك]-[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم : [تجده] أي : وجداناً قلبياً ، لا وجداناً بالرؤية العيانية ، وهذا ما يعرف بالمواجيد القلبية التي أشير إليها في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، فمن ذلك قوله تعالى :

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ أي : بارتكاب كبيرة .

﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ أي : بارتكاب صغيرة .

---

[1] انظر صحيح ابن حبان كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة، وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن .

[2] انظر مستدرك الحاكم والمعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي : تائباً.

﴿يَجِدِ ٱللَّهَ﴾ أي : وجداناً قلبياً .

﴿غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي : يشعر بارتياح في قلبه وانشراح بسبب رجوعه إلى الله مستغفراً تائباً ، ويُقبل الله عليه بالمغفرة والرحمة .

ولو كان هذا الوجدان بالرؤية البصرية للزم أن يرى كل تائب ربه بعيني بصره !

وهذا لا يكون ..

فافهم أن هناك مواجيد قلبية لا ينكرها المؤمن الصادق في توبته وإقباله على ربه ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ﴾

أي : جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم..

﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ﴾

أي : وجداناً قلبياً في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

ومن ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي :

[يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدني قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

قال : أَمَا علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعده ، أما علمت أنك لو عُدته لوجدتني عنده][1] أي : وجداناً قلبياً ، لأن شأن المؤمن المريض أن يكون متوجهاً إلى الله داعياً ربه بالشفاء والرحمة .

---

[1] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

وفي الأثر أن داود عليه السلام سأل ربه في مناجاته : [إِلَهِي أَيْنَ أَجِدُكَ] ؟ - أي وجداناً قلبياً - [قال تعالى : عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَخَافَتِي] [1]

فمن وقع في الذنْب فقد أظلم قلبه من أثر ذنْبه ، لأن للذنوب ظلمات على القلوب كما قال تعالى :﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾.

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم :

[إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سُقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران][2]

ومن استغفر من ذنبه وتاب منه زالت عن قلبه ظلمة الذنب وشهد بقلبه نور ربه وهذا معنى قوله تعالى :﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

---

[1] انظره في الحلية لأبي نعيم والزهد الكبير للبيهقي والهمّ والحزن لابن أبي الدنيا والزهد للإمام أحمد بن حنبل بألفاظ متقاربة

[2] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن واللفظ له وسنن ابن ماجه كتاب الزهد ورواه الحاكم في المستدرك في كتاب الإيمان وابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب . وقال في تحفة الأحوذي ٢١٢/٨:

قوله صلى الله عليه وسلم : [نكتت في قلبه] بصيغة المجهول من النَّكْت ، وهو في الأصل أن تضرب في الأرض بقضيب فيؤثر فيها .

[نكتة سوداء] أي جُعلت في قلبه نكتة سوداء ، أي : أثر قليل كالنقطة ، شبه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما، وقال القاري : أي كقطرة مداد تقطر في القرطاس ، ويختلف على حسب المعصية وقدرها ، والحمل على الحقيقة أولى من جعله من باب التمثيل والتشبيه حيث قيل :

شبّه القلب بثوب في غاية النقاء والبياض ، والمعصية بشيء في غاية السواد أصاب ذلك الأبيض ، فبالضرورة أنه يذهب ذلك الجمال منه ، وكذلك الإنسان إذا أصاب المعصية صار كأنه حصل ذلك السواد في ذلك البياض .اهـ

أي يجد الله غافراً له رحيماً به ، ويستأنس ويفرح بذلك حتى يصير قلبه قريباً من ربه جل جلاله ، ويشهد أنواره كأنه يراه بعينه .

فقوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله تجده تجاهك]

أي : أمامك بالعناية والتوفيق وإلهامك للخير ، وبأخذه بناصيتك لِما فيه رضاه ومحبته سبحانه، فمن أراد أن يمشي في أموره كلها على بصيرة ونور من الله تعالى فليحفظ الله تعالى ، وعلى قدر حفظ العبدِ اللهَ يجد نور الله أمامه بالهداية والتوفيق، كما قال تعالى :﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وقال تعالى :﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي يجعل لكم سبحانه نوراً خاصاً مِن هُداه تفرّقون به بين الحق والباطل ، وإن شأن النور أن يكشف لك الأمور، وكلما قوي النور أظهر لك دقائق الأمور وخباياها .

ألا ترى - من باب ضرب المثال - ألا ترى إلى نور الشمس المحسوس إذا توجَّه شعاعه من نافذة الغرفة أظهر لك الغبار والهباء الدقيق المنتشر في الغرفة وخارجها ، والذي لم يكن للنور الخافت أن يُظهره ، فما بالك بنور الإيمان إذا دخل القلب وتمكن فيه وازداد ؟!

فإنه يكشف لصاحبه عن الأمور الملكوتية العالية وهكذا .

قوله صلى الله عليه وسلم :[إذا سألت فاسأل الله] أي : سل الله تعالى جميع حاجاتك ، فإن الأمور كلها بيده سبحانه ، وهو المدبّر لشؤون خلقه سبحانه.

وفي الأثر أنَّ سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام قال :

[يا ربِّ إنَّه لتَعْرِضُ لي الحاجةُ من الدنيا ، فأستحيي أنْ أسألك ،

فقال سبحانه: سلني حتى ملح عجينك وعَلف حمارك][1]

يعني أن كل الأمور، كبيرها وصغيرها، وجليلها ودقيقها، بيد الله تعالى ، ولولا أن ييسرها سبحانه للإنسان لما تيسرت له .

ومَن فهم مِن قوله صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله] :

مَن فهم أنه لا يجوز سؤال غير الله ، وفهم النهي عن التوسط والتوسل ، فقد ضل وأخطأ في فهم نصوص الكتاب والسنة .

نعم إن المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله]

هو سؤال العبد المعترف بعبوديته لربه ، المفتقر إليه سبحانه في حاجاته كلها، والموقن بأن حاجات الخلق كلها هي بيد الله وحده ، وهو القادر عليها جل وعلا .

وأما سؤال غير الله تعالى لأمر فهو سؤال واسطة وسبب كما قال عز من قائل: ﴿**وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ**﴾ أي : من سألك حاجة فلا تنهره، وقد تكون الحاجة مالاً أو علماً أو غير ذلك .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين

---

[1] كما في (جامع العلوم والحكم) لابن رجب الحنبلي

المحاضرة التاسعة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب حلاوة الإيمان

ثم أورد بسنده إلى أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

[ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ].

وقال: باب : علامة الإيمان حب الأنصار

ثم أورد بسنده إلى أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

[آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ] [1].اهـ

إن الإيمان على أنواع، فهناك الإيمان الاعتقادي ويتضمن قضايا الإيمان الاعتقادية التي يجب على المؤمن أن يعتقد بها اعتقاداً جازماً لا يقبل الشك والارتياب، وهناك الإيمان العملي ويتضمن الأعمال الإيمانية كالصلاة ونحوها، وهذا ما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ أي: صلاتكم .

[1] صحيح البخاري كتاب الإيمان

فقد نزلت هذه الآية في بيان حكم أولئك الذين ماتوا من الصحابة رضي الله عنهم قبل أن تتحول القبلة إلى الكعبة المشرفة - وكانوا وقتها يصلون إلى بيتِ المقْدس[1] - وكذلك نزل في بيان حكم أولئك الصحابة الذين كانوا في سَرِيَّة وأدركتهم الصلاة واجتهدوا في تحري جهة القِبلة، نزل قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [2].

وهناك الإيمان القولي بنطق الشهادتين ثم الأقوال الطيبة .

وهناك الإيمان الأدبي الخلقي ، وفي بيان ذلك كله يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ][3].

ومعلوم أن الحياء يعود إلى الأخلاق والآداب .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام لما سأله عن الإيمان : [أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ][4]... الحديث فكان السؤال عن الإيمان الاعتقادي القلبي، وبيّن الرسول ﷺ في جوابه أصول قضايا الإيمان الاعتقادية .

وقد بيّن الرسول ﷺ في الحديث المتقدم أن للإيمان حلاوة يجدها المؤمن في قلبه إن هو تحقق بالصفات التي ذكرها صلى الله عليه وسلم بقوله :

[أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ] .

ولا بد لمن يجد الحلاوة مِن تذوقٍ لها، وهذا التذوق لحلاوة الإيمان لا يجده إلا المؤمن المتحقق بما أخبر عنه رسول الله في الحديث المتقدم ، ومن فقد حاسة الذوق لم يعد يفرّق بين الحلو والحامض والمر والمالح وهكذا.

---

[1] انظر ما ذكره الحافظ السيوطي حول هذه الآية الكريمة في (الدر المنثور).
[2] انظر ما ذكره الحافظ ابن كثير حول هذه الآية الكريمة في تفسيره.
[3] صحيح مسلم كتاب الإيمان
[4] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

قوله صلى الله عليه وسلم:[أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا]

وهذا هو أول مقام وأعظم مقام يجب على المؤمن أن يتحقق به حتى يجد حلاوته ويتذوقه وينعم به .

قوله صلى الله عليه وسلم: [مِمَّا سِوَاهُمَا] وتشمل هنا جميع أنواع المخلوقات من الإنس بما فيها الأهل والأولاد والدنيا وما فيها من الأموال والتجارات وغيرها .

وذلك لأن كلمة (مَن) في اللغة تطلق على من يعقل أو يعلم فقط، أما كلمة (ما) فتطلق على مَن لا يعقل أو لا يعلم .

ومَن زعم أن الله تعالى ورسوله أحب إليه مما سواهما فيقال له :

إن هذا الأمر لا يتحقق بالدعوى ومجرد الكلام، ولكي تتحقق من ذلك انظر في نفسك وعملك إذا تعارضت عندك رغبات المحبوبين ، فهناك مِن الأوامر ما يحب اللهُ ورسولُه منك أن تفعله ولكن هواك وشهوات نفسك تحب غير ذلك، فإذا قدَّمت هوى نفسك وما تحب على ما يحب الله ورسوله فأنت كاذب في دعواك لمحبة الله ورسوله ﷺ ، وهكذا إذا أنت قدمت ما تحب زوجتك أو أولادك أو أصحابك من أمور تعارض ما جاء عن الله ورسوله .

وخلاصة القول: أن أول علامات صدق المحبة بذل المجهود في اتباع المحبوب وطاعته .

قوله ﷺ : [وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ] يعني أن يحب المؤمن غيره من المؤمنين محبة خالصة لوجه الله تعالى وذلك بسبب إيمانه وصلاحه وهكذا، لا لشيء آخر من منافع دنيوية وهكذا .

وفي رواية للإمام النسائي : [ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَطَعْمَهُ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ فِي اللَّهِ وَأَنْ يُبْغِضَ فِي اللَّهِ][1]... الحديث ، فيحب المؤمن لإيمانه، ويبغض الكافر لكفره وعمله القبيح .

ولبيان علامة الحب في الله فقد قال الإمام العارف يحيى بن معاذ رضي الله عنه[2] : [حَقِيقَة الْحُبّ فِي اللَّه أَنْ لَا يَزِيد بِالْبِرِّ وَلَا يَنْقُص بِالْجَفَاءِ] [3].

يعني أن فلاناً المحبوب عندك إن زاد في بره وعطائه لك زادت محبتك له، وإن هو قصر أو تجافى عنك نقصت محبتك له؛ فليست هذه من علامات المحبة في الله تعالى وإنما هي محبة لسبب آخر ، ومَن أحب أحداً لغير الله تعالى بل لحظوظ نفسانية فهو حب غير مشروع، وتقع على صاحبه المسؤولية والمحاسبة يوم القيامة ، وكذا من أبغض أحداً لغير الله تعالى وذلك لأن القلب في هذه الحالة قد اشتغل بغير الله تعالى، ويجب على القلب أن يكون اشتغاله وتعلقه بالله تعالى وما يَدُلُّك عليه ويذكِّرك به سبحانه .

فكما يجري السؤال والحساب يوم القيامة على الأعمال الجارحية يجري أيضاً على الأعمال القلبية ومنها الحب والبغض .

قوله صلى الله عليه وسلم : [وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ] وفي رواية : [بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ][4] [كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ].

---

[1] سنن النسائي كتاب الإيمان وشرائعه

[2] هو سيدي يحيى بن معاذ الواعظ أبو زكريا ، أحد رجال الطريقة، ذكره أبو القاسم القشيري في " الرسالة " وقال في حقه: " نسيج وحده في وقته، له لسان في الرجاء خصوصاً وكلام في المعرفة"، ومن كلامه : (ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تنفعه فلا تضرّه، وإن لم تسرّه فلا تغمّه، وإن لم تمدحه فلا تذمّه).
توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة ثمان وخمسين ومائتين بنيسابور .
انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٦ \ ١٦٧

[3] انظر فتح الباري ١١ \ ٢٥

[4] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الإيمان

وإن كراهية الإنسان للنار كراهية طبْعية جِبلِّية جُبل على كراهتها والنفور منها، ولا تلاؤم أو انسجام بين الإنسان والنار ، فلا يمكن له يوماً أن يتلاءم معها ، ولو أن أهل الأرض اجتمعوا ليقنعوا عاقلاً أن يمد يده إلى النار لنفر وما فعل، فكذلك المؤمن الحق ينفر من الكفر كراهية له بسبب ما فيه من قوة الإيمان، فنفرة المؤمن من الكفر كنفرة الجسم من النار .

ومن تحقق بهذه الصفات كلها فقد حاز على حاسة التذوق لحلاوة الإيمان وتنعَّم بها.

وفي الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا][1] .

ولكي يتذوق الإنسان حلاوة العسل لا بد أن يكون صحيح الجسم نظيف اللسان، لا آفة ولا عاهة فيه، إذ لو أصيب الجسم بالحمى مثلاً لوجد طعم الأشياء مراً -ولو كانت حلوة المذاق- وليس له عندئذ أن يتهم العسل أو الماء بالمرار ، وذلك لأن حاسة تذوقه غير سليمة أما العسل فمعروف بحلاوته، والماء لا مرارة فيه، وإن لدى كل مؤمن حاسة لتذوق الإيمان ولكنه قد لا يجد ذلك بسبب اعتلال حاسة التذوق لحلاوة الإيمان وهي القلب ، وقد أرشد رسول الله الأمة إلى طريق التذوق لحلاوة الإيمان فقال: [ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ] [2].... الحديث

فقوله صلى الله عليه وسلم : [وَجَدَ بِهِنَّ] أي : بسببهن إن هو تحقق بهن، فهذه الأمور أسباب يأخذ بها المؤمن لتصح عنده حاسة ذوقه لحلاوة الإيمان .

---

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَجَدَ بِهِنَّ] أي بالوجدان القلبي الذي هو الأصل في توزيع هذه الحلاوة على الجسم كله، أما الحلاوة المادية المحسوسة فلا يجد حلاوتها إلا اللسان الصحيح، أما بقية الحواس والجوارح فلا تجد ما وجده اللسان من حلاوة ، وأما حلاوة الإيمان إذا وجدها القلب فتسري منه إلى جميع ذرات الجسم ويتلذذ صاحبه وينعم على وجه مستمر دائم ، بعكس حلاوة اللسان التي هي مؤقتة، تزول إن ابتلعها الإنسان .

فقوله صلى الله عليه وسلم : [وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ] أي الإيمان بشُعبه كلها الاعتقادية والعملية والقولية والخُلُقية الأدبية؛ فيجد المؤمن في أداء عباداته وطاعاته حلاوة ونعيماً بسبب ما وجده القلب من حلاوة الإيمان، فإذا صلى تلذذ وتنعم في صلاته ، وإذا صام شعر بلذة طاعة الصوم ، وإذا زكى شعر بلذة الزكاة وهكذا إذا ذكر الله بلسانه .

ومن شكا أنه لا يجد لذة في عباداته لله تعالى فيقال له: أنت تشبه الذي لا يجد في لسانه طعم الحلاوة بسبب اعتلال مزاجه أو أغشية فوق لسانه، فيجب عليك تصحيح حاسة التذوق عندك بالعمل بما جاء عن رسول الله ﷺ في ذلك - وهو التحقق بمحبة الله ورسوله فوق كل محبوب، ومحبة المؤمنين لإيمانهم وصلاحهم لا لمنافع ومكاسب شخصية أو دنيوية، وكراهية الكفر وما يجر إليه والنفور منه كما ينفر الجسم من النار - إذا أنت تحققت بذلك صحت حاسة تذوق الإيمان عندك ووجدت حلاوة الإيمان في قلبك ولذة الطاعات في أعمالك وأقوالك وأخلاقك وآدابك.

وليعلم كل مؤمن أن حسن الخلق من شُعب الإيمان، وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم: [أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا] [1]فيتفاضل المؤمنون في مقامات الإيمان على حسب تفاضلهم في حسن الخُلق ، وأحسن الخَلق خُلُقاً هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو أكمل الخَلْق إيماناً على وجه فرداني خاص به ﷺ .

---

[1] مسند الإمام أحمد ١٠٣٩٧ وسنن الترمذي كتاب الرضاع وسنن أبي داود كتاب السنة

واعلم أنه لا يمكن للمؤمن أن يدخل الجنة حتى يتحقق بجميع شعب الإيمان الاعتقادية والعملية والقولية والخُلقية والأدبية ، ومن تحقق بجميع شعب الإيمان فهو مؤمن كامل الإيمان ، ولا يدخل الجنة إلا كامل الإيمان ، ومن مات وهو على نقص في إيمانه سواء الاعتقادي أو العملي أو القولي أو الخُلقي فسوف يمر على برازخ الآخرة وأولها عالم القبر ويصيبه مِن الأهوال والكربات على حسب نقصه ودائه حتى يطهر ويطيب ، وأما إذا كان داؤه مستحكماً فيه ولم تطهِّره أهوال البرزخ فإن جهنم آخر مرحلة لتطهير وتهذيب عصاة المؤمنين، ويبقى كل واحد فيها على حسب نسبة فسقه ومُجونه .

أما الكفار فهم خالدون في جهنم أبداً ، وتأتي النار على جميع ذراتهم حتى قلوبهم كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ * نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ * ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ .

وأما المؤمن الفاسق فلا تصل النار إلى قلبه لما فيه من إيمان[1]، وقد حرَّم الله تعالى على النار أن تأكل مواضع السجود من بني آدم كما جاء ذلك في الحديث الشريف[2].

وعندما يخرج عصاة المؤمنين من جهنم يُلقَون في نهر الحياة فتربو أجسامهم وينشئهم الله نشأة تؤهلهم لدخول الجنة فيدخلونها وقد تطهروا وطابوا ، كما قال سبحانه : ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ .

---

[1] جاء في تفسير الخازن ٣٠٥/٦: أي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب ، والمعنى أنها تأكل كل شيء حتى تنتهي إلى الفؤاد ، وإنما خص الفؤاد بالذِّكر لأنه ألطف شيء في بدن الإنسان ، وأنه يتألم بأدنى شيء ، فكيف إذا اطلعت عليه واستولت عليه ، ثم إنه مع لطافته لا يحترق إذ لو احترق لمات صاحبه ، وليس في النار موت ، وقيل إنما خصه بالذِّكر لأن القلب موطن الكفر والعقائد والنيات الفاسدة .

[2] قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : [وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنِ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ] وهو طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق

فلا يدخل الجنة إلا طيب القلب، طيب العقيدة، طيب الأفعال، طيب الأقوال، طيب الأخلاق، طيب المعاملة، وهكذا .. اللهم اجعلنا منهم . آمين

ومما يدل عليه الحديث المتقدم : [ثلاث من كن فيه وجد بهن]: أن الله تعالى ربط الأمور بأسباب لا بد من الأخذ بها حتى في قضايا الإيمان، ويدل أيضاً على فضل محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنها سبب كمال الإيمان والترقي في مقامات الإيمان العالية .

واعلم أنه كثيراً ما تقترن محبة رسول الله ﷺ بمحبة الله تعالى لأنها الدليل الصادق على محبة الله تعالى .

ولقد كان جماعة من الكفار يدَّعون محبة الله تعالى ولما ظهر سيدنا رسول الله لم يتبعوه وظلوا على دعواهم لمحبة الله تعالى فنزل قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾[1] .

فمن لم يتبع رسول الله ﷺ محبة له فهو كاذب في دعواه محبة الله تعالى.

ومما يجب على كل مؤمن أن يعْلمه أن كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو كلام مَن آتاه الله تعالى جوامع الكلم، ولا بد لفهم جوامع الكلم من جوامع المعاني، فمهما بحث المؤمن وفهم من معاني كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يصل إلى الغاية والنهاية .

فما بال كثير من المؤمنين بل من أهل العلم يمرون على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأن معانيها معروفة عندهم ولا يحاولون أن يفهموا منها فوق ما فهموه أو عرفوه؟!

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

---

[1] انظر تفسير ابن كثير عند كلامه حول هذه الآية الكريمة

المحاضرة العاشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال

ثم أورد بسنده إلى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَا أَوِ الْحَيَاةِ] - شَكَّ مَالِكٌ - [فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً؟][1].اهـ

لقد ذكر الإمام البخاري رضي الله عنه هذا الحديث في كتاب الإيمان الذي رتب فيه أبواباً لقضايا الإيمان، واستدل في هذا الباب من الأحاديث النبوية الشريفة بما يدل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن المؤمنين في إيمانهم على درجات ومراتب، وقد يكون المؤمن على نقص كبير في إيمانه حتى إن الإيمان في قلبه مثل حبة الخردل .

ولذلك قال الإمام البخاري : (باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال)أي : بسبب الأعمال، إذاً كلما ازداد المؤمن علماً وعملاً ازداد إيمانه ، وكلما نقص علمه وعمله نقص إيمانه، فقوله : (تفاضل أهل الإيمان في الأعمال) أي : بسبب تفاضلهم في الأعمال؛ تفاضل واختلف إيمانهم، والفاء للسببية في قوله : (في الأعمال)[2].

---

[1] صحيح البخاري كتاب الإيمان

[2] جاء في (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك) ٣٥/٣ أن من معاني (في) : السببية.

قوله صلى الله عليه وسلم : [يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ] أي : يدخل أهل الجنة الجنة على مراتب كما قال تعالى : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ أي جماعات جماعات، فصاروا في دخولهم زُمَراً لاختلاف مراتب إيمانهم، وأيّهم أكمل إيماناً فهو أسبق إلى دخول الجنة .

ولما كانت أول المراتب الإيمانية وأعظم المراتب هي مرتبة الأنبياء كانوا هم عليهم الصلاة والسلام أول الزُّمر في دخول الجنة ، وأعظم الأنبياء إيماناً هو سيدنا محمد ﷺ وهو أول من يدخل الجنة بل هو الفاتح لأبواب الجنة.

وكذلك أهل النار يدخلون النار زمراً كما قال سبحانه : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ أي :على حسب كفرهم ، وآخر الزمر دخولاً النار هم عصاة المؤمنين الذين ماتوا ولم يتوبوا ولم تنلهم المغفرة .

وعذاب عصاة المؤمنين في جهنم يختلف على حسب ذنوبهم ومعاصيهم، ثم يخرجون منها بشفاعات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تخرج آخر زمرة من عصاة المؤمنين بشفاعة أرحم الراحمين جل وعلا .

أما الكفار فهم خالدون في جهنم لا يخرجون منها ، لقوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ﴾ .

واعلم أن مما يجب اعتقاده أن المؤمن العاصي إذا مات ولم يتب من ذنوبه فإن أمره مفوض إلى الله فقد يعذبه وقد يغفر له .

ولا يجوز الاعتقاد أن الله تعالى لا بد أن يعذبه ، أو لا بد أن يغفر له .

كما دل على ذلك ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أن من ارتكب كبيرة ولم يُقَم عليه الحد فأمره إلى الله ، إن شاء عذّبه وإن شاء عفا عنه .

وفي هذا يقول صاحب الجوهرة[1] :

ومن يمت ولم يتب من ذنبه فأمره مفوَّض لربه

ثم أخبر رسول الله ﷺ في الحديث القدسي :

[أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ] .

أي : من عصاة المؤمنين حيث إن الإيمان في قلب أحدهم مثل الحبة في صغره، وإنما يخرج هؤلاء من النار بسبب شفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دلت عليه أحاديث ثانية، منها قوله ﷺ:

[فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ] - وفي رواية : [فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي][2]- [فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ:

---

[1] (جوهرة التوحيد) :أحد أهم متون علم العقيدة والكلام عند أهل السنة والجماعة ، والمتن عبارة عن منظومة شعرية تتألف من ١٤٤بيتاً لمؤلفها الشيخ إبراهيم بن إبراهيم بن حسن بن علي بن عبد القدوس بن الولي الشهير محمد بن هارون اللقاني المالكي المصري ، لقبه : برهان الدين ،وكنيته: أبو الإمداد، وأبو إسحاق ، واللقاني نسبة إلى لقانة -قرية من قرى مصر- وقد توفي رضي الله عنه سنة ١٠٤١هـ

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ] - أي قالها معتقداً دون أن يعمل بمقتضاها أبداً - [فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ][1] - أي : مع ملازمتها التي لا تنفك عنها وهي : محمد رسول الله ﷺ.

ثم قال صلى الله عليه وسلم : [حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ][2]. - أي : وجب عليه الخلود وهم الكفار الذين أشركوا مع الله تعالى، وقال فيهم سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ .

فحكم القرآن على المشركين بالحبس عن مغفرة الله تعالى وبخلودهم في النار .

وتختلف مدة بقاء عصاة المؤمنين في النار على حسب ما ارتكبوه في الدنيا حتى إذا تطهروا من دنس ورجس الذنوب خرجوا من النار وقد اسودوا ، وفي رواية : [فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ قَدِ امْتَحَشُوا][3]- أي : احترقت أجسادهم ، [فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَا] بدون همز أو تاء - ومعناه : المطر ، وسمي بذلك لأن به الحياة، وفي رواية : [أَوِ الْحَيَاةِ] ، وأما رواية : [الحياء] وهو الخلق المعروف فهي رواية بعيدة المعنى[4].

ويرجع اختلاف هذه الروايات إلى شك من الراوي .

ونهر الحياة نهر على باب الجنة وفيه ماء الحياة الذي إذا أصاب جسماً بالياً ميتاً حيي بإذن الله[5] ، وليس المراد منه الماء المعروف عند أهل الدنيا إذ إن الأخير لا يحيا به الأموات .

---

[1] صحيح البخاري كتاب التوحيد

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق

[3] كما في صحيح البخاري كتاب الرقاق ، وقال العيني في عمدة القاري ٦ \ ٨٥ : (قد امتحشوا) ، بتاء مثناة من فَوق مَفْتُوحَة وحاء مُهْملَة وشين مُعْجمَة، وَمَعْنَاهُ: احترقوا ، ويروى بِضَم التَّاء وَكسر الْحَاء. اهـ

[4] انظر شرح الحافظ القسطلاني ١١ \ ١٠٥

[5] انظر عمدة القاري ١١ \ ١٧٠

ولما مرض سيدنا أيوب عليه السلام مرضاً شديداً أمره سبحانه بقوله :

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ .

أي : أمره أن يضرب الأرض برجله فتبعث ماء أمره أن يغتسل بها، فلما اغتسل برئ جسمه وذهب عنه الآفات والأمراض[1] بسبب ماء الحياة.

وبماء الحياة أيضاً أحيا الله تعالى الحوت الصغير الذي كان قد تزود به موسى عليه السلام في سفره[2]مع فتاه وهو يوشع بن نون عليه السلام.

وكان الحوت عبارة عن سمكة كبيرة مملوحة معدة للأكل، فلما مروا في طريقهم في البحر على نبع من ماء الحياة أصاب ذلك الحوت قطرة منه فدبت فيه الحياة وقفز إلى البحر، وجعل الله مكانه مفتوحاً ليكون إشارة لسيدنا موسى عليه السلام إلى أنه بمحاذاة هذه الفتحة ترى الخضر عليه السلام[3] .

وقد أشار سبحانه إلى ماء الحياة بقوله جل وعلا: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾

وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ .

وماء الحياة قد حوى العناصر الحيوية كلها ، أما الماء المعروف ففيه نمط من أنماط الحياة للإنسان والحيوان والنبات .

ولمّا يُلقى عصاة المؤمنين الذين خرجوا من النار ؛ يُلقون في نهر الحياة تربو أجسادهم وتنمو بسرعة كما تنبت الحبة في حميل السيل .

والحِبّة - بكسر الحاء وفتح الباء - هي جمع كلمة حَبّة بالفتح - .

---

[1] انظر تفسير الطبري ١٦ \ ٣٦٤

[2] قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور ٦ \ ٣٩١ :
أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: أتى الحوت على عين في البحر يقال لها عين الحياة، فلما أصاب تلك العين ردّ الله إليه روحه.

[3] انظر تفسير ابن كثير عند كلامه حول قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾. اهـ ٥ \ ١٧٤

ومنهم من قال : هي مفردة، وتعني بذرة معينة تخرج في الصحارى بماء المطر.

وقوله ﷺ : [في حميل السيل] أي : في مجرى السيل فتنبت البذرة بسرعة بسبب ما يحمله السيل من مواد حارة سريعة الإنبات[1] .

وبعدما تربو أجسادهم وتنبت ، يؤمر بهم إلى الجنة وقد طابوا .

وإذا علم الإنسان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمن الطيب فعليه أن يسعى في الدنيا لتطهير نفسه وتطييبها بالأقوال الطيبة والأعمال الصالحة والبعد عن الفواحش والرذائل فيقال له ما جاء في الآية الكريمة : ﴿**طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ** ﴾ .

وذلك حتى لا يعرِّض نفسه للعذاب في النار الذي هو لعصاة المؤمنين بمنزلة التطهير والتهذيب .

ومن طاب في الدنيا أدخله الله جنة الإيمان والعرفان ، وبعد الموت جنة البرزخ وهكذا حتى يدخل جنة المأوى ..

ويدل الحديث المتقدم على تفاضل المؤمنين في درجات الإيمان، فمنهم مَن يكون إيمانه كحبة الخردل، ومنهم أصغر من ذلك، ومنهم من يكون إيمانه أكبر وهكذا، ومنهم من يكون الإيمان في قلوبهم كالجبال الرواسي .

---

[1] جاء في لسان العرب ١١ ٢٩٣: عن الكسائي: الحِبَّةُ حَبُّ الرَّياحِينِ ،وواحده حَبَّةٌ . وقيل: إِذا كانت الحُبُوبُ مختلفةً من كلِّ شيءٍ فهي حِبَّةٌ ، وقيل: الحِبَّةُ بالكسر بُزورُ الصَّحْراءِ مما ليس بقوت، وقيل: الحِبَّةُ نبت يَنْبُتُ في الحَشِيشِ صِغارٌ ، وفي حديثِ أَهلِ النارِ:[فَيَنْبُتون كما تَنْبُتُ الحِبَّةُ في حَمِيل السَّيْلِ] قالوا: الحِبَّةُ إِذا كانت حُبوب مختلفة من كلّ شيءٍ - والحَمِيلُ مَوْضِعٌ يَحْمِلُ فيه السَّيْلُ- والجمع حِبَبٌ وقيل ما كان له حَبٌّ من النَّباتِ فاسْمُ ذلك الحَبِّ: الحِبَّة .
وقال أَبو حنيفة: الحِبَّة بالكسر جميعُ بُزورِ النَّباتِ واحدتها حَبَّةٌ بالفتح .
وعن الكسائي قال: فأَما الحَبُّ فليس إِلا الحِنْطةَ والشَّعِيرَ واحدتها حَبَّةٌ بالفتح. اهـ

ولما نزل قوله تعالى : ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُواْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ قال أناس من الصحابة - منهم أبو بكر وعمر وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن رواحة وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم رضي الله عنهم - قالوا : (لو أمرنا لفعلنا) فقال صلى الله عليه وسلم : [إن من أمتي لرجالاً الإيمانُ أثبتُ في قلوبهم من الجبال الرواسي][1] .

وكما يتفاضل المؤمنون في الدنيا في مراتب الإيمان يتفاضلون في الآخرة في درجات النعيم في الجنات، قال تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: [إن أهل الدرجات العلى] - وهم المقربون - [ليراهم مَن تحتهم]- من أهل الجنة - [كما ترون النجم الطالع في الأفق من آفاق السماء، وأبو بكر وعمر منهم، وأنعَما[2]] .

وأهل الدرجات العلى هم المقربون، وأما مَن دونهم فهم الأبرار .

واعلم أنه ليس لأحد في الدنيا أن يفاضل بين الناس ويحكم على فلان أنه أفضل من فلان وهكذا، إذ إن علم ذلك عند الله تعالى وحده، وقد نهى سبحانه عن التفاضل بين الأنبياء إلا من فضّله الله سبحانه، فما بالك بغيرهم إذاً ؟!

---

[1] انظر ما ذكره الحافظ السيوطي في الدر المنثور حول تفسيره لهذه الآية الكريمة

[2] جاء في حاشية السندي على ابن ماجه ٥٠١١: قَوْلُهُ ﷺ: [وَأَنْعَمَا] مِنْ: أَنْعَمَ إِذَا زَادَ، أَيْ زَادَ عَلَى تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ، أَوْ مِنْ: أَنْعَمَ إِذَا دَخَلَ فِي النَّعِيمِ.
قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي حَاشِيَةِ التِّرْمِذِيِّ فِي تَارِيخِ ابْنِ عَسَاكِرَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: فَقُلْتُ لِأَبِي سَعِيدٍ: وَمَا أَنْعَمَا؟ قَالَ: هُمَا أَهْلٌ لِذَلِكَ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: وَحُقَّ لَهُمَا ذَلِكَ. اهـ

ولقد فضَّل الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ويليه سيدنا إبراهيم عليه السلام ثم سيدنا موسى وسيدنا عيسى وسيدنا نوح - وهم أولو العزم من الرسل - ثم مَن بعد ذلك من الرسل عليهم الصلاة والسلام فما لأحد علم بمن هو أفضل[1] .

فمن زعم أن سليمان أفضل من داود عليهما السلام ، أو أن زكريا أفضل من أيوب عليهما السلام فلا دليل شرعي له في ذلك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم: [لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ][2] وفي رواية : [لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ][3]

إلا بمن جاء نص بتفضيله على غيره، فافهم.

ولمّا يخرج آخر عصاة المؤمنين من النار ويؤذن له بدخول الجنة يخيل إليه أنها ملأى[4] فَيُقَالُ لَهُ: انْطَلِقْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، قَالَ ﷺ : [فَيَذْهَبُ لِيَدْخُلَ فَيَجِدُ النَّاسَ قَدْ أَخَذُوا الْمَنَازِلَ فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قَدْ أَخَذَ النَّاسُ الْمَنَازِلَ قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: أَتَذْكُرُ الزَّمَانَ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ قَالَ: فَيَتَمَنَّى، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَا تَمَنَّيْتَ وَعَشْرَةَ أَضْعَافِ الدُّنْيَا]- وهي رواية الترمذي[5] - .

وفي رواية الإمام مسلم :

[فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟

فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ.

فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ][6].. الحديث

---

[1] انظر فيض القدير للمناوي ٤٦٤١٣ والتنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني ٥٣٤١٥

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء

[3] انظر صحيح مسلم كتاب الفضائل

[4] انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق

[5] انظر سنن الترمذي كتاب صفة جهنم

[6] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

فانظر أيها المؤمن إلى ذلك وتفكر فيه كيف أن الله تعالى يكرم مَن في قلبه مثقال حبة مِن خردل مِن إيمان يكرمه بهذا العطاء العظيم، فما ظنك بمن هو أكبر منه إيماناً، وما ظنك بمَن الإيمان في قلبه أمثال الجبال ؟!

واعلم أن جنة الله تعالى واسعة كبيرة عرضها كعرض سماوات الآخرة وأرضها، لا سماوات الدنيا وأرضها ، كما قال سبحانه: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ** ﴾.

وقال عز من قائل : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**﴾ .

وإن أرض الدنيا المعروفة سوف تحشر يوم القيامة إلى أرض الآخرة لتشهد على ما عمل عليها .

ولو أن سماوات الآخرة مددتها وكذلك أرض الآخرة لعرفت إذاً عرض جنة الآخرة، فما ظنك بطولها ومدها؟!

نعم إن مبدأ الجنة يبدأ من عالم السدرة، وسقفها عرش الرحمن[1] جل وعلا، كل ذلك يدل على قدر عظمة نعمة الإيمان وفضلها وكرامتها على الله تعالى.

---

[1] روى الإمام أحمد في مسنده واللفظ له والترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله عز وجل فَسَلُوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن عز وجل].
وقال الحافظ ابن حجر في الفتح : ولابن أبي حاتم من طريق الربيع بن أنس:
﴿**وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ** ﴾ : العرش.
وقال الإمام القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ** ﴾ قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو العرش وهو سقف الجنة.

وقال سبحانه: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ .

ولا حد ولا انتهاء لفضل الله سبحانه.

ويتحتم على المؤمن أن يتعاطى أسباب زيادة الإيمان بأداء الأعمال الصالحة وتلاوة القرآن الكريم وحضور مجالس العلم فإنه يزيد المؤمن معرفة وخشوعاً لله تعالى ، كما قال تعالى :﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ .

ومما يزيد الإيمان في القلب سماع المواعظ والتذكير بقضايا الآخرة فإنها تجلو القلب وتزكي النفس، وفي هذا قال حنظلة بن الربيع رضي الله عنه :

[نكون عند رسول الله يُذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين][1].. الحديث

ومن زعم أن حضور مجالس العلم والوعظ والتذكير لا ينفع ولا يقرب المؤمن إلى ربه جل وعلا فقد خالف ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ بل وقد جحد موقفه صلى الله عليه وسلم مع الناس في تعليم الكتاب والحكمة كما قال سبحانه: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ .

وإن في سماع آيات الله تعالى أثراً كبيراً في قلب السامع إن هو ألقى سمعه وأشهد قلبه ما تسمع أذناه لأن لكلام الله تعالى روحاً تسري في القلوب فتحيا وتنعم، وكذلك لأحاديث رسول الله لأنها بوحي من الله جل وعلا، والله تعالى يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ .

وقال سبحانه: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ .

ونسأل الله تعالى التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب التوبة عن حنظلة بن الربيع الأسيدي رضي الله عنه

المحاضرة الحادية عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال

ثم أورد بسنده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

[بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ، قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الدِّينَ].اهـ

تقدم الكلام في هذا البحث، وأن الإيمان يتفاضل لدى المؤمنين، وأنهم على مراتب في إيمانهم بسبب تفاضلهم في الأعمال .

قوله صلى الله عليه وسلم : [بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ] يذكر صلى الله عليه وسلم رؤيا منامية قد رآها ، والأصل في كلمة [بينا]:(بين) فأشبعت الفتحة حتى صارت ألفاً ، ويقال أيضاً : (بينما).

وإن رؤيا رسول الله ﷺ المنامية هي نوع من أنواع الوحي النبوي إليه صلى الله عليه وسلم ، لأنه صلى الله عليه وسلم تنام عيناه ولا ينام قلبه بل هو يقظان القلب دائماً .

وكذلك حَفِظَ الله تعالى قلوب الأنبياء كلهم عن النوم والغفلة ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: [إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا][1]وذلك حين يوحى إليهم في المنام عليهم الصلاة والسلام.

---

[1] عزاه في كنز العمال لابن سعد عن عطاء مرسلاً ، وجاء في الصحيحين قول سيدنا رسول الله ﷺ لأم المؤمنين السيدة عائشة الصدّيقة بنت الصدّيق رضي الله عنهما : [يا عائشة إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي].

قوله صلى الله عليه وسلم : [رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ] أي : وهم الأمة المحمدية المسلمة الذين سيأتون بعده إلى يوم الدين، فقوله صلى الله عليه وسلم: [رَأَيْتُ النَّاسَ] أي المسلمين من الناس بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: [وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ] وفسر القُمُص بالدين ، فلا يدخل في الكفرة قوله ﷺ : [رَأَيْتُ النَّاسَ].

وإنا نرجو الله تعالى أن نكون قد عُرضنا على سيدنا رسول الله ﷺ ورآنا وعلينا القمص الواسعة.

قوله صلى الله عليه وسلم : [وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ] : جمع (قميص) ، وتجمع أيضاً على قمصان على وزن : [فُعلان][1] .

فرأى رسول الله ﷺ كل فرد من أمته يلبس قميصاً -وهو ما يتقمصه الإنسان أي: يلبسه على اللحم، وأما ما يلبس فوقه فيسمى: (رداء) وهو أطول من القميص[2].

والقميص في العرف الشرعي : ما كان طوله إلى ما تحت الركبة .

قوله صلى الله عليه وسلم : [مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ] .

أي : فليست الأمّة على مرتبة واحدة في لبس القمص، فمنهم من يبلغ قميصه إلى ثديه فقط، ومنهم من يبلغ أكثر من ذلك وهكذا ..

وقوله صلى الله عليه وسلم: [الثُّدِي] - بضم الثاء المشددة وكسر الدال - : جمع (ثدي)[3] وروي أيضاً بالإفراد : [الثَّدي][4] - بفتح الثاء - .

---

[1] انظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١٧٣\١١

[2] جاء في المعجم الوسيط : (الرِّدَاء) مَا يلبس فَوق الثِّيَاب . اهـ

[3] انظر فتح الباري لابن حجر ٣٩٥\١٢

[4] انظر عمدة القاري ١٤٨\٢٤ وقال القاري في مرقاة المفاتيح : [مِنْهَا] أَيْ: مِنَ الْقُمُصِ [مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ] بِضَمِّ الْمُثَلَّثَةِ وَكَسْرِ الدَّالِ وَتَشْدِيدِ التَّحْتِيَّةِ جَمْعُ الثَّدْيِ، وَفِي نُسْخَةٍ بِالْفَتْحِ وَالسُّكُونِ وَالتَّخْفِيفِ.اهـ

وفي رواية الحكيم الترمذي: [فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَمِيصُهُ إِلَى سُرَّتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَمِيصُهُ إِلَى رُكْبَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَمِيصُهُ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ][1]

فأما أولئك الذين لم تبلغ قمصهم إلا إلى الثدي فهم أضعف المؤمنين إيماناً فقالوا : (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ) وفي قلوبهم ذرة إيمان، فلم يتجاوز قميص أحدهم ما بين حلقومه وقلبه فقط .

قوله صلى الله عليه وسلم : [وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ] - أي : فيما يبلغه القميص فمنهم إلى السرة ، ومنهم إلى الركبة وهكذا .

قال صلى الله عليه وسلم:[وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ] أي : قد بلغ ما تحت كعبيه ويجره على الأرض أيضاً .

[قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟].

وَوَقَعَ عِنْدَ التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم: [فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْر رضي الله عنه : عَلَى مَا تَأَوَّلْت هَذَا يَا رَسُول اللَّه ؟]-أي على أي شيء أولت ذلك؟-

[قَالَ: عَلَى الْإِيمَان][2] .

والمراد أنه صلى الله عليه وسلم رأى أمته التي تأتي من بعده ويؤمنون به إلى يوم الدين، ورأى عليهم ﷺ ما تحققوا به من الدين - بما فيه من العقائد والأعمال والأقوال.

ويدل الحديث المتقدم على أن لرؤيا المنام اعتباراً وأحكاماً في شرع الله تعالى فلقد أوَّل رسول الله ﷺ اللباس في المنام بالدين والإيمان .

وهناك أمور تُحمد في عالم المنام وتُذم في عالم اليقظة، إذ لا تؤخذ رؤيا المنام على ظاهرها في اليقظة، فمن ذلك أنه في اليقظة جاء النهي والذم على جر القميص، وأما في عالم المنام فكان ذلك أمراً محموداً يدل على كمال الإيمان والدين كما أوَّله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[1] كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح ١١٢\٣٩٥

[2] كما في الفتح ١١٩\٤٨٩

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم:

[ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ][1].

وإسبال الإزار تحت الكعبين أو جره على الأرض صفة المتكبرين المتجبرين، وجاء التحذير والنهي عن ذلك في عالم اليقظة، وأما في المنام فله أحكام تدل على معاني الكمال فافهم.

ويدل هذا الحديث أيضاً على أن عالم المنام عالم حقيقي له اعتباره وأحكامه، ويحتاج تعبيره إلى علم خاص ينطوي في علم النبوة، وقد قال ﷺ عن الرؤيا الصادقة : [ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة][2]وما كان من النبوة فإنه لا يكذب ، أي: يكون خبر هذا المنام ومدلوله أمراً حقاً لكن تعبيره يستلزم علماً خاصاً.

ولرؤيا المنام أنواع :

منها الرؤيا الصادقة الصالحة التي يراها المؤمن ، ولها شأنها وتأويلها .

ومنها رؤيا حديث النفس بأن يرى الإنسان نفسه في المنام على مثل ما يعمله في عالم اليقظة من ذهاب وتجارة وأكل وشرب وغير ذلك .

ومنها رؤيا أضغاث أحلام أي أحلام مختلفة لا انسجام فيها ، وقد يتخللها مخاوف ونزغات شيطانية ، ولهذه الرؤيا آداب بعد الاستيقاظ من النوم كما هدى إلى ذلك رسول الله ﷺ، منها : التعوذ بالله من الشيطان، وأن تتفل عن يسارك [3].

---

[1] مسند الإمام أحمد بن حنبل بهذا اللفظ وهو في صحيح مسلم كتاب الإيمان بلفظ قريب

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التعبير

[3] جاء في صحيح مسلم كتاب الرؤيا قوله ﷺ : [الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثْ بِهَا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِنْ رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّهَا، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ]. وارجع إلى ما ذكره مولانا الإمام في كتابه (الدعاء) في مبحث :الأدعية الواردة في آداب الرؤيا تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى .

أما الرؤيا الصادقة الصالحة فقد تتضمن بشائر من الله تعالى للرائي أو انكشافات عن قضايا غيبية ستجري فيما بعد ، وهذا النوع من الرؤى هو المعتبر في شرع الله تعالى، وأشار إليه سبحانه بقوله :

﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ في بيان معنى البشرى في الحياة الدنيا :

[هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو تُرى له][1].

ومما يُذكر في أصول تأويل الرؤيا أنها تؤول بالأسماء، فمن رأى مثلاً أن فلاناً جاءه أو اجتمع به أو لقيه أو سلم عليه فلينظر في اسم ذلك الرجل الذي رآه، ومن اسمه قد يعبر المنام .

وقد تعبّر الرؤيا بحقيقة ما ترى لا باسمه، فلقد فسر رسول الله ﷺ رؤيا القميص بحقيقته وهي أنه يستر الجسم فهو يدل على الدين والإيمان في اليقظة وذلك للمناسبة بينهما، فالقميص يلبسه الإنسان لستر عورته وجسمه إذ يبلغ إلى ما تحت الركبة ويقي الحر والقرّ فكذلك الدين والإيمان يستر عوار الإنسان - أي : نقصه وعيبه - ويستر عورته أيضاً .

والعوار في اللغة هو النقص والعيب ويدل على صفات الرذيلة[2] .

فلا يستر ذلك في الإنسان إلا تمسكُه بدين الله تعالى .

وأَمَرَ الدين أيضاً بستر العورة عند الإنسان، وقد سميت العورة بذلك لأن النظر إليها قبيح مذموم، والعورة هي السوءتان المعروفتان عند الإنسان ، وعورة الرجل بالنسبة لأمثاله من الرجال هي من السرة إلى الركبة.

وعورة المرأة المؤمنة بالنسبة للنساء المؤمنات هي من السرة إلى الركبة - أي : إلى ما تحت الركبة، فعورة المرأة من المرأة كعورة الرجل من الرجل[3] .

---

[1] المسند ٢٦٢٧٦ وسنن الترمذي كتاب الرؤيا

[2] انظر لسان العرب مادة (عور) .

[3] انظر كتاب (بدائع الصنائع) ١٢٤\٥

وأما عورة المرأة بالنسبة لمحارمها - وهم الذين لا يصح زواجها من أحدهم على التأبيد - فعورتها من هؤلاء: من الثدي إلى ما تحت الركبة مع ما يقابل ذلك من الظهر ودونه[1] .

وأما المرأة بالنسبة لزوجها فلا عورة لها ، ويحل له أن ينظر إلى ما شاء من جسمها، وأن يتورع عن النظر إلى سوءتيها أمر أكمل وأحسن لأن الإكثار له محاذيره وإن كان مباحاً [2]، وأما المرأة بالنسبة للأجنبي فلا يحل له أن ينظر إلى شيء منها .

فالدين يأمر الإنسان بستر عورته ويحفظه من العوار أي من صفات النقص والرذيلة، ويكمّل صاحبه ويجمله ، فهو لباس كامل يستر به الإنسان عورته وجسمه ويتزين ويتجمل به، فينبغي على العاقل أن يلبس دين الله تعالى بأن يتحقق به، وإن الإنسان أعظم وأشد حاجة إلى هذا اللباس من لباسه الحسي الذي يتزين ويتجمل به، ولذلك لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض قال سبحانه مخاطباً له ولذريته: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ - أي لباساً حسياً يستر عوراتكم - ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ - أي : وأنزلنا عليكم ريشاً أيضاً وهو ما تكسون به بيوتكم من أثاث وفرش ومتاع[3] ، ثم لفت سبحانه انتباههم إلى ما هو أحوج وأهم فقال : ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ أي : فلا يكن هم أحدكم في لباس الدنيا ومتاعها وأثاث بيته فقط، إذ إن ذلك كله عَرَض زائل، بل يجب أن يكون همه الأكبر هو لباس التقوى الذي سيلبسه في الآخرة ظاهراً لجميع الخلائق ، وبه يُعرض على رب العالمين جل وعلا .

---

[1] انظر حاشية الصاوي على الشرح الصغير ١١\٢٩٠

[2] انظر كتاب تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ١٦\٣٦٧

[3] انظر ما ذكره الخازن في تفسيره حول هذه الآية الكريمة

وإذا كان من شأن الإنسان أن يصطحب معه ما يحتاجه من لباس ومتاع إذا أراد سفراً إلى جهة معينة بحيث يكون ذلك اللباس يناسب تلك البلد التي سيسافر إليها، فما بال الإنسان يعرض عن اصطحاب لباس معه إلى عالم الآخرة الذي سيرحل إليه لا محالة؟!

وما ذلك اللباس إلا تقوى الله تعالى .

وإذا كان الإنسان يهتم بنظافة لباسه في الدنيا ويبذل جهده وماله في التزين والتجمل أمام الناس خاصة إذا قيل له : إنهم سينظرون إليك بدقة وإمعان وفيهم فلان وفلان من أولي الجاه والمنصب .. فجدير بالإنسان العاقل أيضاً أن يبذل جهده في أن يكون لباسه الذي سيراه عليه خلق الله كلهم أن يكون كاملاً جميلاً .. بل وبلباسه هذا سيعرض على الله تعالى .

قال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

وفي ذلك قال عمر رضي الله عنه : [وتزينوا للعرض الأكبر] [1].

وهو العرض على الله تعالى .. قال سبحانه :﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ .

وإن لباس الدنيا قد يتعرض للأوساخ وغيرها فيخلعه الإنسان ويرتدي غيره، أما إذا لبس لباس التقوى فعليه أن يحافظ عليه ولا يخلعه كمن قال فيهم سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

وقد أخبر سبحانه في هذه الآية عن بلعم بن باعوراء الذي كان من عبّاد بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام فلبس الآيات النازلات على موسى عليه السلام ثم انسلخ منها وتعرى عن لباس الدين فظهر قبحه وعواره [2].

---

[1] انظر سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

[2] انظر ما ذكره الحافظ السيوطي في الدر المنثور والحافظ ابن كثير في تفسيره حول هذه الآية الكريمة

ولقد أخبر رسول الله ﷺ في الحديث المتقدم أنه رأى عمر رضي الله عنه وعليه قميص يجره مما يدل على كمال إيمانه ودينه ، وذكر ذلك ﷺ منقبة لعمر رضي الله عنه ولا يعني أن غيره من الصحابة لم يبلغوا كمال الإيمان فافهم .

ولقد كانت بشائر سيدنا رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه وإخباراته عن مناقبه تزيده رضي الله عنه تواضعاً وخشية لله تعالى ولا يرى لنفسه رفعة أو فضلاً على أحد من المسلمين .

ومما يذكر في هذا السياق أن رسول الله ﷺ كان قد سمّى لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه سمى له بعض المنافقين ، وأمره بكتم السر .

كما روى البيهقي عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما قَالَ: [بَلَغَنَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ غَزَا تَبُوكَ نَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ فَأُوحِيَ إِلَيْهِ وَرَاحِلَتُهُ بَارِكَةٌ، فَقَامَتْ تَجُرُّ زِمَامَهَا حَتَّى لَقِيَهَا حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، فَأَخَذَ بِزِمَامِهَا فَاقْتَادَهَا حَتَّى رَأَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا، فَأَنَاخَهَا ثُمَّ جَلَسَ عِنْدَهَا حَتَّى قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَاهُ فَقَالَ: " مَنْ هَذَا؟ " فَقَالَ: حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَإِنِّي أُسِرُّ إِلَيْكَ أَمْرًا فَلَا تَذْكُرَنَّهُ، إِنِّي قَدْ نُهِيتُ أَنْ أُصَلِّيَ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ " رَهْطٍ ذَوِي عَدَدٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، لَمْ يُعْلِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذِكْرَهُمْ لِأَحَدٍ غَيْرِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي خِلَافَتِهِ إِذَا مَاتَ رَجُلٌ يَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ أُولَئِكَ الرَّهْطِ أَخَذَ بِيَدِ حُذَيْفَةَ فَاقْتَادَهُ إِلَى الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، فَإِنْ مَشَى مَعَهُ حُذَيْفَةُ صَلَّى عَلَيْهِ، وَإِنِ انْتَزَعَ حُذَيْفَةُ يَدَهُ فَأَبَى أَنْ يَمْشِيَ مَعَهُ انْصَرَفَ عُمَرُ مَعَهُ فَأَبَى أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، وَأَمَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يُصَلَّى عَلَيْهِ[1].

ومَاتَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ حُذَيْفَةُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ :

أَمِنَ الْقَوْمِ هُوَ؟

فَقَالَ: نَعَمْ.

[1] انظر سنن البيهقي

قَالَ: فَقَالَ: بِاللَّهِ، فَمِنْهُمْ أَنَا؟

قَالَ: لا، وَلَنْ أُخْبِرَ أَحَدًا بَعْدَكَ].[1]

وعَنْ ضَبَّةَ بْنِ مِحْصَنٍ الْعَنَزِيِّ قَالَ: كَانَ عَلَيْنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ أَمِيرًا بِالْبَصْرَةِ، فَوَجَّهَنِي فِي بَعْثِهِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ، فَضَرَبْتُ عَلَيْهِ الْبَابَ، فَخَرَجَ إِلَيَّ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا ضَبَّةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْعَنَزِيُّ. قَالَ: فَأَدْخَلَنِي مَنْزِلَهُ، وَقَدَّمَ إِلَيَّ طَعَامًا، فَأَكَلْتُ ثُمَّ ذَكَرْتُ لَهُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ، فَبَكَى، فَقُلْتُ لَهُ: أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، فَازْدَادَ بُكَاءً لِذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَبْكِي: وَاللهِ لَلَيْلَةٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَيَوْمٌ خَيْرٌ مِنْ عُمَرَ وَآلِ عُمَرَ، هَلْ لَكَ أَنْ أُحَدِّثَكَ بِيَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ؟[2].....

- وأراد رضي الله عنه بهذه الليلة ليلة الهجرة التي قضاها أبو بكر رضي الله عنه مع سيدنا رسول الله ﷺ في غار ثور، ونزل في ذلك قوله تعالى : ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا**﴾ ، وباليوم يوم الردة .

فانظر في خشية عمر من الله تعالى وخوفه أن يكون فيه شيء من النفاق وانظر في تواضعه وحفظه وتقديره لمقام سيدنا أبي بكر رضي الله عنه وفي ذلك إشارة إلى أمر هام وهو أن المؤمن مهما بلغ في المراتب وارتقى فيها فعليه أن لا يضيع مرتبة غيره، وأن يعترف لأهل المراتب بفضلهم وكرامتهم.

ويجب التنبيه إلى أمر قد يجهله كثير من الناس إذ إن أحدهم قد يصف فلاناً بأنه (عُمَري) يعني بذلك : أنه شديد في أمر الحق على غيره، ولكنك إذا دققت في أفعاله وأقواله لَمَا رأيت منه تلك الشدة والحرص على أمر الله تعالى .

---

[1] انظر مصنف ابن أبي شيبة وكتاب السنة لأبي بكر بن الخلال

[2] انظر المجالسة وجواهر العلم للدينوري ٣٨٠١٥ ودلائل النبوة للبيهقي ومستدرك الحاكم

لذلك يجب أن يفهم كل عاقل أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان أول ما صرف شدته وعمريته على نفسه فهضم نفسه وطرد شيطانه، ونشر العدل بين الناس .

فمن مواقفه أنه خطب مرة فقال :

أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء ، وقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم وأصحابه إنما الصدقات فيما بينهم أربع مائة درهم فما دون ذلك؟ ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند اللَّه أو مكرمة لم تسبقوهم إليها ، فلا أعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربع مائة .

ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش - كانت تجلس مع النساء آخر صفوف الرجال - فقالت له : يا أمير المؤمنين، نهيتَ الناس أن يزيدوا النساء في صدقاتهن على أربع مائة درهم؟

قال : نعم، فقالت : أما سمعت ما أنزل اللَّه في القرآن؟

قال : وأي ذلك ؟

فقالت : أما سمعت الله تعالى يقول :

﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

فقال : اللَّهم غفراً ، كل الناس أفقه من عمر.

ثم رجع فركب - أي : صعد - المنبر فقال :

أيها الناس إني كنت نهيت أن تزيدوا النساء في صداقهن على أربع مائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب. اهـ

قال أبو يعلى: وأظنه قال : فمن طابت نفسه فليفعل[1].

[1] عزاه السخاوي في المقاصد الحسنة إلى مسند أبي يعلى بهذا اللفظ وقال : وسنده جيد قوي ، وعزاه إلى سنن البيهقي وسنن سعيد بن منصور ومصنف عبد الرزاق

وهكذا من نظر وتدبر في سلوك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان كل واحد منهم مدرسة في سيره وسلوكه وذلك لأنهم نشؤوا على أنظار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته وتعليماته وإرشاداته صلى الله عليه وسلم.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين .

المحاضرة الثانية عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

بَاب خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.
وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ : (مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا).
وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ:(أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ).
وَيُذْكَرُ عَنِ الْحَسَنِ- رضي الله عنه قوله -:(مَا خَافَهُ) - أي ما خاف اللهَ تعالى - (إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ) .
قال: وَمَا يُحْذَرُ مِنَ الْإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ وَالْعِصْيَانِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:﴿**وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾.
ثم روى البخاري رضي الله عنه بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ] .اهـ

لقد ذكر الإمام البخاري رضي الله عنه هذا الباب في كتاب الإيمان الذي عقده في جامعه الصحيح ، وقد ذكر في كتاب الإيمان جملة من الأحاديث التي تتعلق بقضايا الإيمان .

وقد ذكر رضي الله عنه أن خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر هو من مقتضيات الإيمان الكامل، وعلى المؤمن أن لا يعطي الأمان لنفسه وأن لا يأمن مكر الله تعالى به، كما أن عليه أن لا يمدح نفسه ولا يرى لنفسه الفضل على غيره؛ فربما أحبط الله أعماله الصالحة وهو لا يشعر وذلك بسبب أمور قد يقع فيها .

ومن أعظم الأمور التي تحبط الأعمال : إساءة الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ كما قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ أي : لو أن الإنسان علم بحبوط عمله لَتداركَ أمره ولكنه إذا لم يشعر بذلك فتكون المصيبة أعظم .

ويستفاد من الآية أن رفع الصوت على صوت رسول الله ﷺ يحبط العمل، وكذلك الجهر له بالقول، فمن باب أولى أن يحبط عمل من يرفع رأيه على رأي رسول الله ﷺ أو يقدِّم علمه وفهمه لأمر يخالف به ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

وقد يبدو ذلك واضحاً فيمن راح يضعِّف حديثاً جاء عن رسول الله ﷺ لأنه لم يوافق هواه ورأيه، أو أنه راح يتكلم في حكم شرعي ثبت بيانه عن رسول الله ﷺ وهكذا .

فإذا كان النهي عن رفع الصوت في حضرة رسول الله ﷺ لأنه يُحبط الأعمال الصالحة فإن رفع الفهم والرأي على فهم ورأي رسول الله ﷺ هو صريح الكفر والعياذ بالله تعالى.

[1] انظر البحث في ذلك مفصلاً في كتاب مولانا الإمام (حول تفسير سورة الحجرات) عند كلامه رضي الله عنه حول هذه الآية الكريمة.

وقد نص العارفون رضي الله عنهم أنه من جملة الأدب مع رسول الله ﷺ - والذي يغفل عنه كثير من الناس - أنه إذا تناظر اثنان في مسألة شرعية أو علمية وأفصح أحدهما عن رأيه، وراح الآخر يقول له : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" ويسرد له حديثاً شريفاً ، والأول يستمر في كلامه ولا يصغي إلى حديث سيدنا رسول الله ﷺ فيكون بذلك قد رفع صوته فوق حديث سيدنا رسول الله ﷺ، وقد جاء النهي عن ذلك والتحذير من حبوط عمل مَن أساء الأدب في هذا الجانب مع سيدنا رسول الله ﷺ.

وينبغي على كل مؤمن إن هو سمع حديث رسول الله ﷺ أن يتأدب ويصغي إلى سماعه متأدباً وكأن رسول الله ﷺ هو الذي يخاطبه .

ويتحتم هذا الأمر أيضاً على أهل العلم إن جرى بينهم مناظرة علمية، فعلى أحدهم أن يصغي إن سمع الآخر يسرد له حديثاً عنه صلى الله عليه وسلم، ثم إذا أراد أن يبيّن حُجته أو فهماً آخر للحديث فليفصح عنه عندما يفرغ الآخر من سرده لحديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلا حبط عمله لأنه قاطع بكلامه حديث رسول الله ﷺ أو لم يصغ إليه متأدباً .

وقد جعل الله تعالى الأدب مع رسول الله ﷺ ميزاناً لكمال الإيمان والتقوى فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ .

ومن جملة الأسباب التي تحبط أعمال الإنسان وهو لا يشعر:

الكلمة التي يتكلمها الإنسان يتألى بها على الله تعالى، فمن ذلك ما ورد في الحديث:[أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ][1].

---

[1] كما في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب .
وقال مولانا الإمام في كتابه (التقرب إلى الله تعالى) في الصفحة ٢٠٧ :
فمن حلف أن الله تعالى لا يغفر لفلان الذنْب واستبعد ذلك عن الله تعالى، فإن الله تعالى يحبط عمله، ويغفر لذلك المذنب، فلا حكم على الله، وإنما الحكم لله تعالى.

أي : أحبط الله عمل ذلك الرجل الذي حكم على فلان أن الله لا يغفر له ..

فهل وكّل الله تعالى فلاناً على خزائن مغفرته ورحمته ؟!

وهذا معنى قول الإمام البخاري : باب خوف المؤمن أن يحبط عمله - أي : بسبب قول أو فعل أو كلمة صدرت منه فحبط عمله بسبب ذلك وهو لا يشعر .. وليحذر أولئك الذين يأتي أحدهم بكلام يتخلله آية قرآنية كريمة أو حديث نبوي شريف ويأتي بها في سياق الهزل ليُضحك الناس ويكون بذلك قد حبط عمله .

وإن النصوص الشرعية من آيات قرآنية وأحاديث نبوية لها حرمتها وقدسيّتها ، ولا ينبغي الإتيان بها في سياق الهزل والضحك .

قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾.

وقال تعالى : ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا۟﴾ .

قوله[1]: وقال إبراهيم التيمي- وهو من كبار التابعين وعبّادهم ومن أئمة الحديث أيضاً رضي الله عنه[2] - قال: (مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا)[3] .

---

[1] أي قول الإمام البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه

[2] هو سيدي إبراهيم بن يزيد التيمي الإمام القدوة الفقيه عابد الكوفة، وكان أبوه يزيد من أئمة الكوفة أيضاً، كان شاباً صالحاً قانتاً لله تعالى، عالماً فقيهاً كبير القدر واعظاً ، توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة أربع وتسعين للهجرة النبوية الشريفة ولم يبلغ أربعين سنة.اهـ انظر سير أعلام النبلاء ٥ \ ٦٠

[3] قال الحافظ ابن حجر في الفتح ١١ \ ٧٦ : يروى (مكذَّباً) بفتح الذال، يعني إبراهيم بذلك: خشيت أن يكذبني من رأى عملي مخالفاً لقولي فيقول: لو كنت صادقاً فعلت خلاف ما تقول ، وإنما قال ذلك لأنه كان يعظ الناس - أي: فكان يخاف أن يكون واعظاً وليس متعظاً بما يقول، ويروى بكسر الذال وهي رواية الأكثر (مكذِّباً) ومعناه: أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل، وقد ذمّ الله تعالى من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصّر في العمل فقال سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قال: فخشي أن يكون مكذّباً أي: مشابهاً للمكذبين. اهـ.

وهذا التخوف ليس تخوف حبوط العمل، وإنما تخوف الإنسان من أن يقول شيئاً ولم يتحقق به، وهو ما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ* كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾.

ولقد كان إبراهيم التيمي رضي الله عنه عابداً زاهداً ورعاً جامعاً للقراءات محدِّثاً واعظاً، ومع ذلك كله يخاف من أن يكون يتكلم بكلام تخالفه أفعاله فهو يخاف أن يكون ممن قال فيهم سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ .

وقد خاف من هذه الآية كبار الصحابة وكبار العلماء والعبّاد، وقد خاطب فيها سبحانه أهل الإيمان فقال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ فليحذر المؤمن أن يتكلم بكلام ينافي أفعاله، أو أن يوهِم الناس بكلام أنّ فيه من الصفات كذا وكذا ولم يتحقق بها بعد .

وليسأل المؤمن ربه الستر والغفران وأن يجمّله ويكمّله ويتمم النعمة عليه.

واعلم أن من خاف شيئاً أمّنه الله تعالى مما يخاف، ومن أمن من شيء وقع فيه.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ:
(أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ).

وجاء في رواية لغير الإمام البخاري ذِكر عدة من الصحابة منهم أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وعقبة بن الحارث والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما[1].

وكل من هؤلاء يخاف على نفسه النفاق - أي النفاق الأصغر وهو في الأقوال والأعمال ، ويسمى النفاق العملي .

أما نفاق الكفر فهو النفاق الأكبر ، وهو في العقيدة الإيمانية إذ يبطن صاحبه الكفر ويظهر الإسلام .

والنفاق الأصغر - وهو النفاق العملي - هو الذي كان يخافه الصحابة ، وهو أن يكون في عمل أحدهم شيء من عدم الإخلاص مع الله تعالى .

ويدخل في النفاق الأصغر : الرياء والسمعة وحب الظهور وحب ثناء الناس عليه، ومن جملة النفاق الأصغر أن يُخلف المؤمن وعده كما في الحديث

الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

[آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائْتُمن خان] [2].

وإذا استحكم النفاق العملي في المؤمن فقد يجره إلى النفاق الأكبر وهو نفاق الكفر والعياذ بالله تعالى .

---

[1] قال الحافظ القسطلاني في (إرشاد الساري شرح صحيح البخاري) ١٣٦١١ : (وقال ابن أبي مُليكة) بضم الميم عبد الله بن عبيد الله القرشي التيمي المكي المؤذن القاضي لابن الزبير المتوفى سنة سبع عشرة ومائة (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-) أجَلُّهم السيدة عائشة وأختها السيدة أسماء والسيدة أم سلمة والعبادلة الأربعة، وعقبة بن الحارث والمسور بن مخرمة (كلهم يخاف) أي يخشى (النفاق) في الأعمال (على نفسه) لأنه قد عرض للمؤمن في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص.
ولا يلزم من خوفهم ذلك وقوعه منهم، وإنما ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رضي الله عنّا بهم.اهـ

[2] انظر صحيح البخاري وصحيح مسلم كتاب الإيمان

فمن شأن المؤمن الكامل أن يخاف أن يقع في النفاق الأصغر وهو النفاق العملي فيخاف مثلاً أن يخلف وعداً وعده أو يخون أمانة من ائتمنه وهكذا.

فمن وعد غيره أنه سيبيعه السلعة الفلانية إن هو حصل عليها ثم أخلف وعده فقد ارتكب حراماً، وليس له أن يحتج أنه لم يحصل عقد بالبيع بعدُ لأن نقض الوعد بالبيع حرام .

ومن بابٍ أشد حرمة أن يعقد الإنسان عقد بيع مع غيره ويتم الإيجاب والقبول منهما ثم يفسخ البائع عقده لسبب ما، فلا يحل له ذلك أبداً إلا إذا تراضى البائع والمشتري على فسخ العقد .

ولا يحل أيضاً للمشتري التراجع عن شرائه إلا إذا رضي البائع، قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ .

فمن لم يوف بوعده ففيه صفة من صفات النفاق العملي فما الظن بمن تراجع عن أداء شروط عقده؟!

ومن وعد صبياً بشيء فليوف بوعده ولا يقل : هذا صبي لا يعقل!

فأنت الذي تعقل وأنت وعدت[1] .

ومن هنا يعلم العاقل أنه يجب أن يكون كلامه كلام إنسان كامل، كلامه مصون عن العبث، ويترتب على كلامه أحكام وعهود ووعود ومواثيق، وعليه أن يلتزم بما تكلم به .

[1] روى أبو داود في سننه في كتاب الأدب عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ:[دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ؟ قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِيهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ].

ومن علامات النفاق العملي خيانة الأمانة سواء كانت مالية أو قولية، فمن شكا إليك أمراً أهمّه ليسلي عن نفسه أحزانه، وقال لك : "دع هذا الأمر بيني وبينك، فاكتمه ولا تنشره على أحد"، ثم رحت أنت تذيعه وتشيعه بين أقاربه وأصحابه فقد خنت الأمانة، وعلى ذلك يكون فيك خصلة من النفاق يجب أن تتوب منها .

ولقد كان أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ يخاف أحدهم أن يقع في خصلة من النفاق الأصغر - العملي - مع أنهم أعظم وأفضل وأول من تحقق بالهدي المحمدي ﷺ والتزموه على مشهد ومسمع من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - كان أحدهم يخاف من تغير الحال معه إن هو خرج من مجلس رسول الله ﷺ ، وخافوا أن يكون ذلك من النفاق .

فمن ذلك ما رواه الإمام مسلم عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِدِيِّ رضي الله عنه

- وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]- قَالَ:

[لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا[2] الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ[3] فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا.

---

[1] انظر (الإصابة في معرفة الصحابة) ٢٤٦/١

[2] أي : خالطنا

[3] أي: الحرف الدنيوية التي تكاد أن تضيع للإنسان فكره ووقته ، ومنه يقال عن المزرعة الكبيرة:(ضيعة)، وأما إذا كانت صغيرة لا تضيع صاحبها فلا يقال عنها: (ضيعة) .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً][1].

فبيّن رسول الله ﷺ أن اختلاف الحال الذي يشعر به الإنسان ليس من النفاق طالما أنه على خشية من الله تعالى في السر والعلن وفي الخلوة والجلوة ، فقد يعتري المؤمن ساعة يصفو بها قلبه وتسمو بها نفسه ويشهد من أنوار الله ما لا يشهده في ساعة غيرها، وهكذا كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس نقاء وارتقاء، ترتفع فيه الحجب عن القلوب لقوة النور المحمدي الساطع فيجد الصحابة في مجلسه صلى الله عليه وسلم ما لا يجدونه إذا خرجوا من عنده ﷺ .

واعلم أن للعندية المحمدية ﷺ اعتباراً عظيماً وأحكاماً عالية أشار إليها سبحانه بقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، ولذلك قال العارفون رضي الله عنهم: [كل حال له مقال، وكل مقال له حال][2] .

فأقوال الرجال هي التي تورث الأحوال ، وهؤلاء الرجال هم الذين بلغوا مبلغ الرجال الكمّل في مقامات الإيمان والتقوى، والذين ذكرهم الله تعالى بوصف الرجولية كقوله تعالى : ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ .

ومن أَلْهَتْهُ التجارة عن ذِكر الله فليس له من صفة الرجولية إلا الاسم .

وقال تعالى : ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ .

وقال تعالى : ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ .

---

[1] صحيح مسلم كتاب التوبة

[2] قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة : (لكل مقام مقال): الخطيب في الجامع عن أبي الدرداء، والخرائطي في المكارم، وابن عدي في الكامل، كلاهما عن أبي الطفيل موقوفاً. اهـ
وقال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي رضي الله تعالى عنه في الفتوحات المكية ١٥٢/١ : (لكل مقام مقال، ولكل عِلم رجال).

فإذا بلغ الرجل مبلغ الكمال : بلغ مبلغ الرجال في الإيمان والتقوى ، فإذا قال أحدهم مقالاً أورث أحوالاً في السامع صاحب القلب المستعد المتقبل لنور الحق .

وأما ما اشتهر على ألسنة بعض الناس من قولهم : [إن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب ، وإذا خرج من اللسان لا يجاوز الآذان][1] فقد قال العارفون: وهذا الكلام مردود غير صحيح وإن اشتهر ونقل[2] .

وذلك لأنه يخالف ما جاء في شرع الله تعالى فلقد تكلم سيدنا نوح عليه السلام بكلام من قلبه وخاطب قومه ودعاهم إلى الله تعالى فلم يؤمن منهم إلا القليل، وكذلك سائر الأنبياء والرسل على نبينا وعليهم الصلاة والسلام فقد تكلموا وخاطبوا أقوامهم بكلام صادر من قلوبهم النبوية المنبَّأة من جانب الحق جلّ وعلا ، ومع ذلك كان هناك مِن أقوامهم مَن سمع كلامهم وأعرض وكفر .

نعم إن الكلمة التي تخرج من القلب وتصادف قلباً مستعداً تؤثر فيه وتورث صاحبه الهدى والتقوى ، وأما القلب المقفل الغافل المعرض عن الحق فلا يتقبّل أنوار الكلام الحق فلا يتأثر ولا يهتدي ، ومثال ذلك كالبذرة أو الحبة إذا رميتها في أرض خصبة رطبة طيبة تراها تنبت وتنمو وتثمر، وأما إذا صادفت أرضاً صخرية يابسة فلا تنبت ولا تثمر مع أن البذرة واحدة، فلم يستجب لدعوة الرسل عليهم السلام إلا أصحاب القلوب المستعدة فآمنوا واهتدوا ، وأما من لم يستجب فهم أصحاب القلوب الميتة كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وأما من لم يستجب فهم أموات القلوب ، قال جل وعلا: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ .

---

[1] وجاء هذا في كلام العرب . انظر كتاب العقد الفريد ١٦١/١ لابن عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة ٣٢٨ هـ

[2] انظر ما ذكره الشيخ الأكبر سيدي الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه عن ذلك في كتابه الفتوحات المكية ١/٥

فقد يتكلم عالم بلغ مبلغ الرجال في الإيمان والعلم ، ويسمع كلامَه ومواعظه وتذكيره جمهرةٌ من الناس ولا يتأثر منهم إلا أصحاب القلوب المستعدة الحية مع أن كلام ذلك الرجل كان صادراً من قلب مؤمن موقن ولا شك .

ويتبين لك مما تقدم أن لكل مقال أحوالاً، ولكل مقال رجالاً ، فإذا بلغ الرجل مبلغ الرجال أورث مقاله أحوالاً ، فمن ذلك ما جاء عن الإمام الجنيد[1] رضي الله عنه أنه لما بلغ مبلغ الرجال - أي : في الإيمان والعلم والكمال - قال له شيخه وخاله السري السقطي[2]: "يا بني تكلم على الناس "- أي : عِظهم وانفعهم بعلمك فقد حقّ لك ذلك - فتقاصر في نفسه وقال له : "أنا أتكلم على علماء بغداد ؟!- أي : وفيها من العلماء وقتئذ الأكابر والفحول - فبات تلك الليلة فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال له : [تكلم على الناس] فاستيقظ وصلى ما تيسر ثم مضى إلى المسجد ، ومرّ في طريقه على بيت خاله السري حتى يخبره بالرؤيا ، فطرق الباب عليه ، فناداه من وراء الباب : أما صدّقتني حتى أَمَرك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!.

فذهب إلى المسجد وجلس على الكرسي - وقد اجتمع الناس وتزاحموا لسماع وعظه وإرشاده - فجاء رجل متلثم متنكر ووقف وقال :

يا إمام: ما معنى [اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله][3]؟.

---

[1] سيدي الإمام الأكبر و العارف الأشهر، شيخ مذهب الطريقة وعَلَم أعلام هذا الشأن، أصله من نهاوند، ومنشؤه بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج؛ فلذلك يقال له:(القواريري)، توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة ٢٩٧هـ

[2] الإمام القدوة، أبو الحسن البغدادي ، ولد في حدود الستين ومئة، هو خال الجنيد وأستاذه رضي الله تعالى عنهما، صحب معروفاً الكرخي وهو أجلُّ أصحابه ، وكان أوحد أهل زمانه في الورع والأحوال السنية وعلم التوحيد ، وهو أول من يتكلم فيه ببغداد ، وإليه ينتمي أكثر المشايخ ببغداد، ومات بها سنة إحدى وخمسين ومائتين للهجرة ، وقبره بالشونيزية ظاهر يزار. اهـ

انظر سير أعلام النبلاء ١٨٥/١٢ والطبقات الكبرى للشعراني ٧٣

[3] طرف حديث شريف رواه الترمذي في سننه في كتاب تفسير القرآن

فأطرق الجنيد ثم رفع رأسه وقال له : (أسلم يا نصراني ، فقد آن أوان إسلامك)، وكان الرجل نصرانياً متنكراً بزي المسلمين فأسلم وآمن[1].اهـ

وهكذا كان جواب الإمام رضي الله عنه جواباً عملياً ، وكان هذا أول مجالسه رضي الله عنه للتذكير .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين .

[1] انظر وفيات الأعيان ٣٧٤/١ والرسالة القشيرية ٣٩٦/٢

المحاضرة الثالثة عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . أما بعد :

قال الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه :

باب المراقبة : قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ .

وَالآيات في البابِ كثيرة معلومة .

وأما الأحاديث ، فالأول : عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَالَ : [بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَومٍ؛ إذْ طَلَعَ عَلَينا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيهِ أثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبيّ صلى الله عليه وسلم فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيهِ إِلَى رُكْبتَيهِ، وَوَضعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ، وَقالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أخْبرني عَنِ الإسلامِ ، فَقَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلامُ : أنْ تَشْهدَ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله ، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إن اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبيلاً .

قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقهُ.

قَالَ: فَأَخْبرِنِي عَنِ الإِيمَانِ .

قَالَ: أنْ تُؤمِنَ باللهِ ، وَمَلائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَاليَوْمِ الآخِر ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ .

قَالَ: صَدقت.

قَالَ: فأَخْبرني عَنِ الإحْسَانِ .

قَالَ : أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ .

قَالَ : فَأَخْبِرني عَنِ السَّاعَةِ .

قَالَ : مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ .

قَالَ: فأخبِرني عَنْ أمَاراتِهَا، قَالَ: أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وأنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ.

ثُمَّ انْطَلقَ فَلَبِثْتُ مَلِيّاً ، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ ، أَتَدْري مَنِ السَّائِلُ ؟

قُلْتُ: اللهُ ورسُولُهُ أعْلَمُ.

قَالَ: فإنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أمْرَ دِينكُمْ]. رواه مسلم .اهـ [1]

المراقبة هي أن يراقب العبد أن الله تعالى رقيب عليه دائماً، لا يخفى عليه منه شيء، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ .

وأصل معنى المراقبة ملازمة رقبة الآخر، ولا يتصور هذا المعنى في حق المخلوق إذ قد يراقب إنسان غيره فترة مؤقتة ثم ينصرف عنه مع أنه لا يمكنه معرفة ما يجول في نفسه، قال سبحانه : ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ .

فالرقيب على الحقيقة هو الله تعالى، فهو سبحانه محيط بالعبد لا يفارقه، وهو معه بعلمه وقدرته وإحاطته جل وعلا .

---

[1] انظر رياض الصالحين ص ١٤

وعلى العبد أن يراقب مراقبة الله تعالى عليه حتى يكون قلبه دوماً متوجهاً إلى الله تعالى، لا يغفل عنه سبحانه.

وحقيقة المراقبة هي عبادة لله تعالى؛ إذ إن كون العبد يراقب أن الله تعالى رقيب عليه؛ ناظر إليه؛ مطلع على ظاهره وباطنه؛ هو في حد ذاته عبادة لله تعالى، وإن لم يذكر العبدُ بلسانه اللهَ تعالى ، يعني : أن اشتغال القلب بمراقبة الرب جل وعلا هو عبادة لله تعالى بل هو من أفضل العبادات، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ *الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ .

هذا الخطاب موجّه لسيدنا رسول الله ﷺ، والأمّة لها حكم التبَعية لسيدنا رسول الله ﷺ في هذا الخطاب .

ومن أراد أن يتوكل على أحد في أمر فلا بد أن يكون متصفاً بالقدرة والقوة على إنفاذ هذا الأمر ، وإلا فما فائدة التوكل عليه ؟!

ولذلك قال سبحانه : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ أي : الغالب القوي ، فمن كان متوكلاً فليتوكل على من له القدرة المطلقة والغلبة والعزة وهو الله تعالى.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: الرحيم بمن توكل عليه فلا يخونه ولا يخذله ولا يمكر به.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي : حين تقوم إلى الصلاة فإن الله يراك ، ويرى تقلبك في الساجدين حين تدخل في الصلاة يا محمد يا رسول الله وتؤم الناس وتنتقل بهم من قيام إلى ركوع إلى سجود إلى قيام وهكذا ... كل ذلك على مرأى منه سبحانه وتعالى .

وتشمل الآية وجوهاً من المعاني، منها الذي ذكرناه وهو : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي : حين الصلاة .

قوله تعالى : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي : يراك سبحانه حين تقلّب بصرك في الساجدين وراءك ، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه .

ففي الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إني لكم إمام، فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام، فإني أراكم من أمامي ومن خلفي][1]... الحديث

فهو صلى الله عليه وسلم ينبّه المصلين وراءه أن يلتزموا الحضور والخشوع، وأن يلتزموا متابعته ﷺ، ولا يتقدموا عليه في أفعال الصلاة[2].

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يلتزمون متابعة رسول الله ﷺ في صلاتهم معه وهم في غاية الحضور والخشوع لله تعالى لأنهم على مرأى من الله تعالى وعلى مرأى من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: إلى صلاة الليل متهجداً فإن هذا القيام له شأنه إذ كان صلى الله عليه وسلم يقوم في نصف الليل ليصلي ويدعو.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي : تقلبك في المتهجدين الساجدين لله تعالى. ولقد كان صلى الله عليه وسلم يقوم في نصف الليل يصلي، ثم يمضي يتفقد بيوت بعض الصحابة في آخر الليل فيمرّ على بيوت الأشعريين وغيرهم ويسمع تلاوتهم للقرآن الكريم، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : [إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ] [3]... الحديث

---

[1] مسند الإمام أحمد ١٢١١٠ واللفظ له وصحيح مسلم كتاب الصلاة

[2] وقد جاء النهي عن تقدم المقتدي على إمامه في أفعال الصلاة ، ونص الفقهاء على كراهة ذلك تحريماً . انظر حاشية العدوي ٣٠٩/١

[3] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب المغازي وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ .

- أي : تفقّدك لهم حين تمر على بيوتاتهم وتستمع لقراءاتهم .

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ .

أي يراك في الصلاة ويرى قيامك من المجلس فهو صلى الله عليه وسلم على مرأى من الله تعالى في كل أحواله، ويدل ذلك على عناية الله تعالى به وأنه صلى الله عليه وسلم موضع نظر الحق جل وعلا، وفي هذا من التكريم والعناية الإلهية برسول الله ﷺ ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ يعني أنه صلى الله عليه وسلم على مرأى من الله تعالى وعناية به منذ صغر سنه الشريف صلى الله عليه وسلم.

واعلم أن الخلق كلهم على مرأى من الله تعالى وأنه سبحانه يراهم ويبصرهم وينظر إليهم أجمعين، لكن نظره سبحانه إلى أهل الإيمان والتقوى هو نظر رحمة ورضا وعناية خاصة، قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ .

من هم هؤلاء العباد ؟

قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

وقال سبحانه : ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي : بصير بأولئك العباد الذين خالفوك يا رسول الله .

فانظر الفرق الكبير بين معنى العباد في الآية الأولى ، ومعنى العباد في الآية الثانية، فالعباد في الآية الأولى هم العباد المتقون، وقوله سبحانه : ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي : بصر تكريم وعناية .

وأما نظره وبصره سبحانه بالعباد المخالفين في قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي : بصر علم وقدرة وشهود لأعمالهم، حتى إذا جاء يوم القيامة نبأهم الله بأعمالهم، قال تعالى : ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ .

وقال جل وعلا : ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ .

ومما يتقدم يتبين لك أن للنظر أثراً كبيراً في المنظور إليه، وهكذا نظره سبحانه لرسول الله ﷺ، فهو نظر رحمة ورضا وتكريم وعناية خاصة تليق بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ :

يعني : المؤمنين بالله تعالى[1]، ويكون المعنى : تقلبك من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات وهكذا أباً بعد أب حتى وُلدت يا رسول الله طاهراً ، من نكاح ، لا من سفاح .

---

[1] قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور : وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال : ما زال النبي صلى الله عليه وسلم يتقلّب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه.اهـ
وانظر ما ذكره الآلوسي حول تفسيره لهذه الآية الكريمة.
وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) في الصفحة ٢٦٧:
وفي رواية عن قتادة وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قالا : المراد بالساجدين المؤمنين .
وهذا يشمل أولاً الأنبياء الذين تقلّب في أصلابهم، ويشمل غيرهم من بقية أصوله ، فإنّهم كانوا على توحيد الله تعالى، وخاصّة الأبوين الكريمين، فإنّهما على الملّة الحنيفيّة، كانا موحّدين لله تعالى، ومؤمنين به سبحانه، على أصل الفطرة الدينية، التي فُطروا عليها، بدليل قوله ﷺ : [بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت فيه] كما في البخاري وغيره .
فكل قرن من آدم إلى قرنه ﷺ فيه مؤمنون ، وفيه كفار ، ولا شك أنّ المؤمنين هم أهل الخير ، فلما قال ﷺ : [بعثت من خير قرون بني آدم ...] الحديث ، أي : بعثت من خير المؤمنين الذين هم خير كل قرن حتى قرنه ﷺ ، فإنّ فيه المؤمنين الموحّدين - وإن كانوا قلّة - ، فبعث من خيرة كل قرن ، فدل ذلك على أنّ كل أصوله موحدة مؤمنة بالله تعالى ، ولا سيما الأبوين الشريفين .
روى أبو نعيم في (الدلائل) والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : [ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما ، فأخرجت من بين أبويّ فلم يصبني من عهر الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً] صلى الله عليه وسلم .
وأخرج أبو نعيم في (الدلائل) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفّى مهذّباً، لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما] صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ولم يدخل عمود النسب النبوي المحمدي أيُّ دنس من أدناس الجاهلية والشرك بل كلهم كانوا على التوحيد من لدن والده الشريف السيد عبد الله إلى سيدنا آدم عليه السلام [1].

ولقد دلت الآية على أن الله تعالى هو رقيب على خلقه في جميع حركاتهم وسكناتهم وتقلباتهم، ومطلع على ما في بواطنهم، ويعلم ما تخفي صدورهم، فيجب إذاً على كل مؤمن أن يراقب مراقبة الله عليه ، ويتأكدُ ذلك عليه حين يقوم إلى الصلاة؛ فليدخل في صلاته وهو حاضر القلب فيشاهد أنوار الرب بقلبه، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبريل عليه السلام فقال : [فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ ﷺ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ][2]

- أي : أن تعبد الله جل وعلا مشاهداً له بقلبك كأنك تراه بعينك، فإن لم تكن حصلت على هذا المقام فراقب مراقبة الله عليك، أي : فلتكن في عبادة الله بين حالين: إما حالك مشاهداً أو مراقباً ، وإلا كنت غافلاً .

ولا شك أن مقام المشاهدة أعلى وأرقى، وهو على مراتب .

ولا بد من الاستعانة بالله تعالى واللجوء إليه سبحانه لدفع الوساوس الشيطانية والخواطر النفسانية التي قد تعتري الإنسان أثناء صلاته أو عبادته لله تعالى، قال سبحانه : ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ**﴾ - أي : لا بنفسك - ﴿**إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ .

---

[1] وانظر رحمك الله تعالى ما جاء في كتاب : (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) في مبحث (حكم الأبوين الشريفين) في الصفحة ٢٨٧ حيث ذكر الشيخ الإمام رضي الله عنه فيه ما يثبت ويدل على نجاة والديه الشريفين صلى الله عليه وسلم وطهارة النسب المحمدي من النسب والشرك من لدن والده الشريف ﷺ السيد عبد الله إلى سيدنا آدم عليه السلام .

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

وعلى كل مؤمن أن يستعين على حضور قلبه في عبادته لله تعالى وفي صلاته بأمور تمكّنه من الحضور والخشوع فيها، ومن أهمها :

أن لا يغفل عن مراقبة الله تعالى، ولا يغفل عن ذِكر الله تعالى أثناء عمله في الدنيا من تجارات وبيع وشراء وغير ذلك، حتى إذا جاء وقت الصلاة قام إليها وهو على ذِكر لله تعالى ومراقبة له سبحانه .

وأما من غرق في بحر الدنيا ومشاغلها وأرخى لنفسه العنان وغفل عن ذِكر الله تعالى ومراقبته فإنه إذا جاء وقت الصلاة قام إليها متثاقلاً وأدى صلاته وفكره يجول في أمور الدنيا ولم يتمكن من الحضور والخشوع، وذلك لأن قلبه كان مشغولاً في الدنيا غافلاً عن الله تعالى، وفي هذا يقول سبحانه : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي : لأنهم يخافون يوماً وهو يوم الحساب والجزاء.

وليعلم كل مؤمن أنه لا بد لإيمانه أن يظهر أثره في أعماله وأقواله وبيعه وشرائه ومعاملاته، وفي نصحه وصدقه وفي سلوكه كله، وإلا فهو على نقص في إيمانه.

قال تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي بالمعية العامة ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي : أنتم فالـ ﴿ أَيْنَ ﴾ من صفتكم، وهو سبحانه لا أين له ولا كيف ولا كَم، وكل ذلك من صفات الخلق .. وهو سبحانه منزه عن الحلول بمكان أو الحدّ بزمان .

فكان سبحانه ولا مكان ولا زمان، وهو الذي خلق المكان والزمان، وهو غني عن خلقه كلهم، وهو الآن على ما عليه كان جل وعلا .

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي: سواء كنتم في المسجد أو في السوق أو في المنزل أو في المتجر فهو سبحانه معكم، وقد غاب عن أبصاركم أن تروه؛ ولكنه تبارك وتعالى معكم بعلمه وقدرته وبصره وإحاطته، فغاب عن أبصاركم أن تروه لكنه معكم بالمعيّة المطلقة المنزهة اللائقة بجلاله سبحانه .

وقد أخبر سبحانه عباده أنه معهم أينما كانوا حتى يكونوا على مراقبة له سبحانه، ولا تغفل قلوبهم عن ملاحظة ذلك، وهذا ما يحمل الإنسان على الكفّ عن مخالفة أمرِ مَن هو معه، ولا يغيب عنه أبداً .

ورأى الإمام الجنيد رضي الله عنه رأى في منامه إبليس يضحك ويسخر من الناس فقلت له: أما تستحي من الناس؟!

فقال إبليس: لو كانوا ناساً ما كنت ألعب بهم كما يلعب الصبيان بالكرة، إنما الناس جماعة غير هؤلاء.

فقلت: أين هم؟ فقال: في مسجد الشونيزي[1]، قد أضنوا قلبي وأتعبوا جسدي.

قال: فلما انتبهت لبست ثيابي ورحت إلى المسجد الذي ذكر فإذا فيه ثلاثة جلوس) -مراقبين لله تعالى يتفكرون- (فرفع أحدهم رأسه إلي وقال: يا أبا القاسم لا تغتر بحديث الخبيث)[2].

---

[1] مسجد الشونيزية هو مسجد قديم جاء ذِكره في عدد من المصادر التاريخية ، كان موقعه في مدينة بغداد ، وكانت هناك منطقة الشونيزي الصغير، الذي فيه محلة تعرف باسم محلة مقابر قريش، أما منطقة الشونيزي الكبير، فبقيت تعرف بمقبرة الشونيزية تارة، ومقبرة الجنيد البغدادي تارة أخرى ، وتضم محلة الشونيزية بداخلها رباط الشونيزية ومسجدها المذكور الذين كانا مقصداً لطلبة العلم وملاذاً لرجال التصوف آنذاك.

[2] كما في البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١١٠/١١ وطبقات الأولياء لابن الملقن ١٣٢ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤١٩/١ وصفة الصفوة لابن الجوزي ٢٧٣/١

-وقالوا ذلك من باب التواضع، وإلا فهم صلحاء، كاشفوا ما جرى بين الجنيد رحمه الله تعالى ورضي عنه وبين إبليس .

ولا تنكر - رحمك الله - شيئاً وصلك من هذه الأمور فقد نقلها مَن هو أعلم وأتقى وأورع منك وهو حجة الإسلام الإمام الغزالي رضي الله عنه[1]، ولكن مِن شأن الإنسان أن يرد ما لا يتقبله عقله، وما ذلك إلا لضيق عقله وقلة علمه وغروره بنفسه، وهل يصح للإنسان أن ينكر شيئاً بحجة أنه لم يحصل عليه ؟!

فمثاله كمن قيل له : إن فلاناً وفلاناً من الأغنياء يملكون كذا وكذا من الذهب والأموال الطائلة فأنكر ذلك لأنه لا يملك شيئاً مما عندهم !

فانظر إلى كلام إبليس اللعين أنه لم يرض أن تطلق كلمة (الناس) على أولئك الغافلين عن الله تعالى، فهو يلعب بهم كما يلعب الصبي بالكرة، وإلا فالناس على الحقيقة هم أهل الإيمان والصلاح والتقوى .

وقد قال صلى الله عليه وسلم: [إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت][2] أي : تعلم ذلك على يقين وتحقق .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

---

[1] في إحياء علوم الدين في كتاب المراقبة والمحاسبة ٥٠٩/٤

[2] رواه الطبراني في المعجم الأوسط وأبو نعيم في الحلية

المحتوى

المحاضرة الأولى	٥
المحاضرة الثانية	١٣
المحاضرة الثالثة	٢٢
المحاضرة الرابعة	٣٣
المحاضرة الخامسة	٤٤
المحاضرة السادسة	٥٧
المحاضرة السابعة	٦٩
المحاضرة الثامنة	٨٧
المحاضرة التاسعة	١٠١
المحاضرة العاشرة	١٠٩
المحاضرة الحادية عشرة	١١٩
المحاضرة الثانية عشرة	١٣٠
المحاضرة الثالثة عشرة	١٤٢
كُتُبٌ للمؤلف	
مِن آثار الشيخ الإمام	
قَبَسات من المؤلفات	

كُتُب للمُؤَلِّف

* حول تفسير سورة الفاتحة - أمّ القرآن الكريم .
* حول تفسير سورة الحجرات .
* حول تفسير سورة ﴿ ق ﴾ .
* حول تفسير سورة الملك .
* حول تفسير سورة الإنسان .
* حول تفسير سورة العلق .
* حول تفسير سورة الكوثر .
* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
* تلاوة القرآن المجيد: فضائلها - آدابها - خصائصها .
* شهادة لا إلـه إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ :
فضائلها - معانيها - شواهدها ومشاهدها - مطالبها .
* سيدنا محمد رسول الله ﷺ : خصاله الحميدة - شمائله المجيدة .
* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.
* التقرب إلى الله تعالى : فضله - طريقه - مراتبه .
* الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدين - فضائلها - آثارها - آدابها .
* الصلاة على النبي ﷺ : أحكامها - فضائلها - فوائدها .
* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.
* الدعاء : فضائله - آدابه - ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .

* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .

* الإيمان بالملائكة عليهم السلام، ومعه بحث حول عالم الجن .

* حول ترجمة المرحوم الإمام العلّامة الشهير والعارف الكبير فضيلة سيدي الوالد الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني رضي الله تعالى عنه .

* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .

* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار.

* أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .

* مناسك الحج ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .

* الصيام : آدابه - مطالبه - فوائده - فضائله .

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام :

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام - المؤلفات المكتوبة

مِن آثار الشيخ الإمام

* محاضرات حول الفضائل المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم .

* محاضرات حول الإسراء والمعراج : آثاره - فضائله - أسراره.

*محاضرات حول الإيمان بالقضاء والقدر.

* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم .

* محاضرات حول عالم الجنة : مراتب الجنة - ألوان النعيم في الجنة - صفات أهل الجنة .

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم – الجزء الأول .

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم في الوعظ والتذكير - الجزء الثاني .

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم - موقف تعليم الكتاب - الجزء الثالث.

* محاضرات حول مقامات أهل الإيمان - الجزء الرابع .

* محاضرات حول هجرة سيدنا رسول الله ﷺ من مكة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة.

* محاضرات حول تفسير خواتيم سورتَي البقرة وآل عمران والمعوِّذات وأذكار بعد الصلوات.

* محاضرات حول مقتضيات الشهادة بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

* مجالس الحديث النبوي الشريف: الجزء الأول - الثاني - الثالث - الرابع .

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام :

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام - المؤلفات المكتوبة

قَبَسات من المؤلفات

* الكلام حول الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده .
* حُكْمُ أَبَوَيْ سيِّدنا محمد ﷺ الشَّريفَين .
* أربعون حديثاً من جوامع كلِم النبي ﷺ .
* شفاعة سيدنا محمد ﷺ العامة والخاصة .
* التوسل والاستغاثة بسيدنا محمد ﷺ .
* رحمة سيدنا محمد ﷺ للعالم .
* عصمة سيدنا محمد ﷺ من الخطأ في جميع أحواله .
* حول مولده الشريف ﷺ والابتهاج والاحتفال بيوم مولده الشريف ﷺ .
* الأمر بالمحافظة على الصلاة ، والتحذير من تأخيرها والوعيد الشديد لمن تركها.
* سبب وجود بعض الأحاديث التي فيها ضعف في مؤلفات الإمام .
* سبب ذِكر بعض البشائر المنامية في كتاب (الصلاة على النبي ﷺ).
* البشائر الغُرر للمكثرين من الصلاة على سيد البَشر ﷺ .
* آثار الزكاة وأنوارها ، وعقاب مانع الزكاة .
* بيان قصة الغرانيق الباطلة .
* صلاة الاستخارة ودعاؤها .
* صلاة التراويح وعدد ركعاتها .
* وصول الثواب إلى الأموات .
* معاني الصلاة الإبراهيمية .

وتجدونها وغيرها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام :

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام - قبسات من المؤلفات